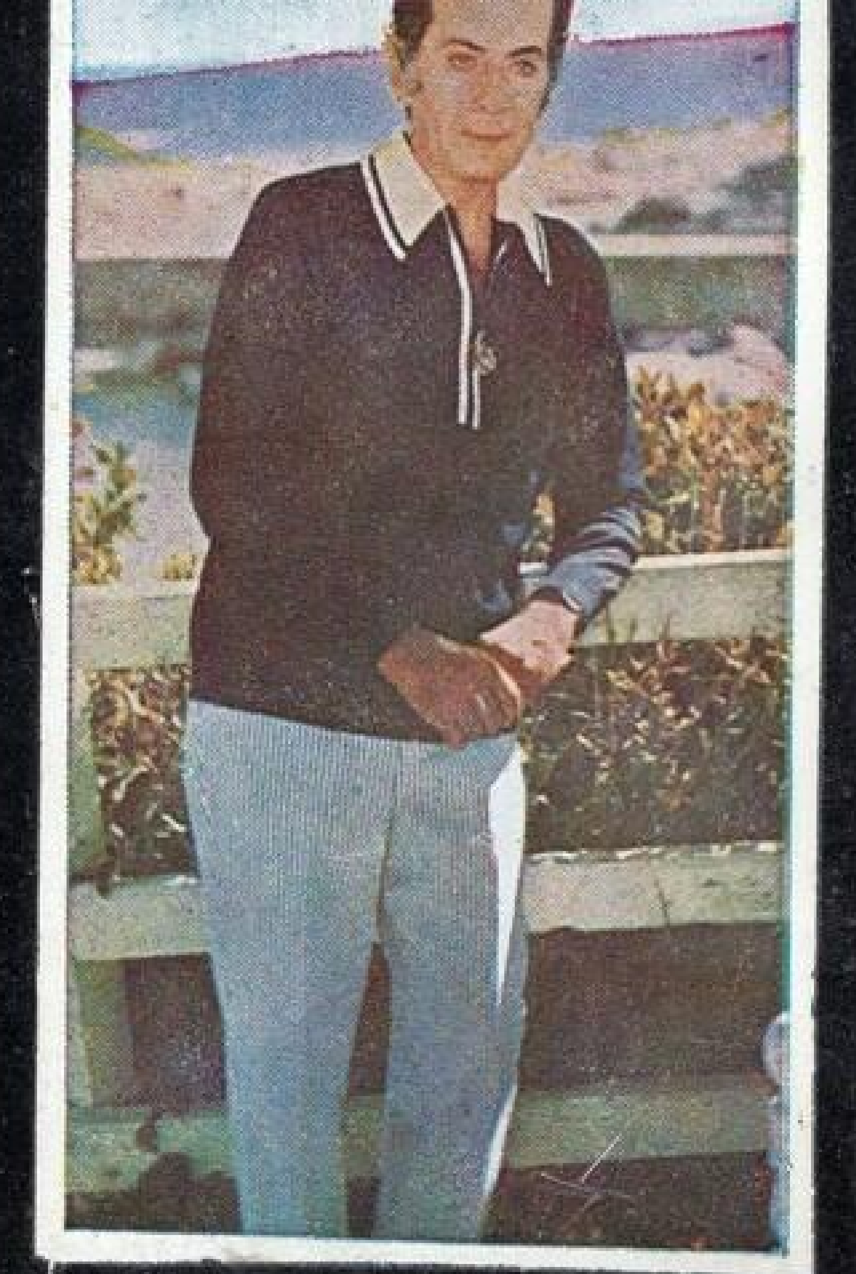
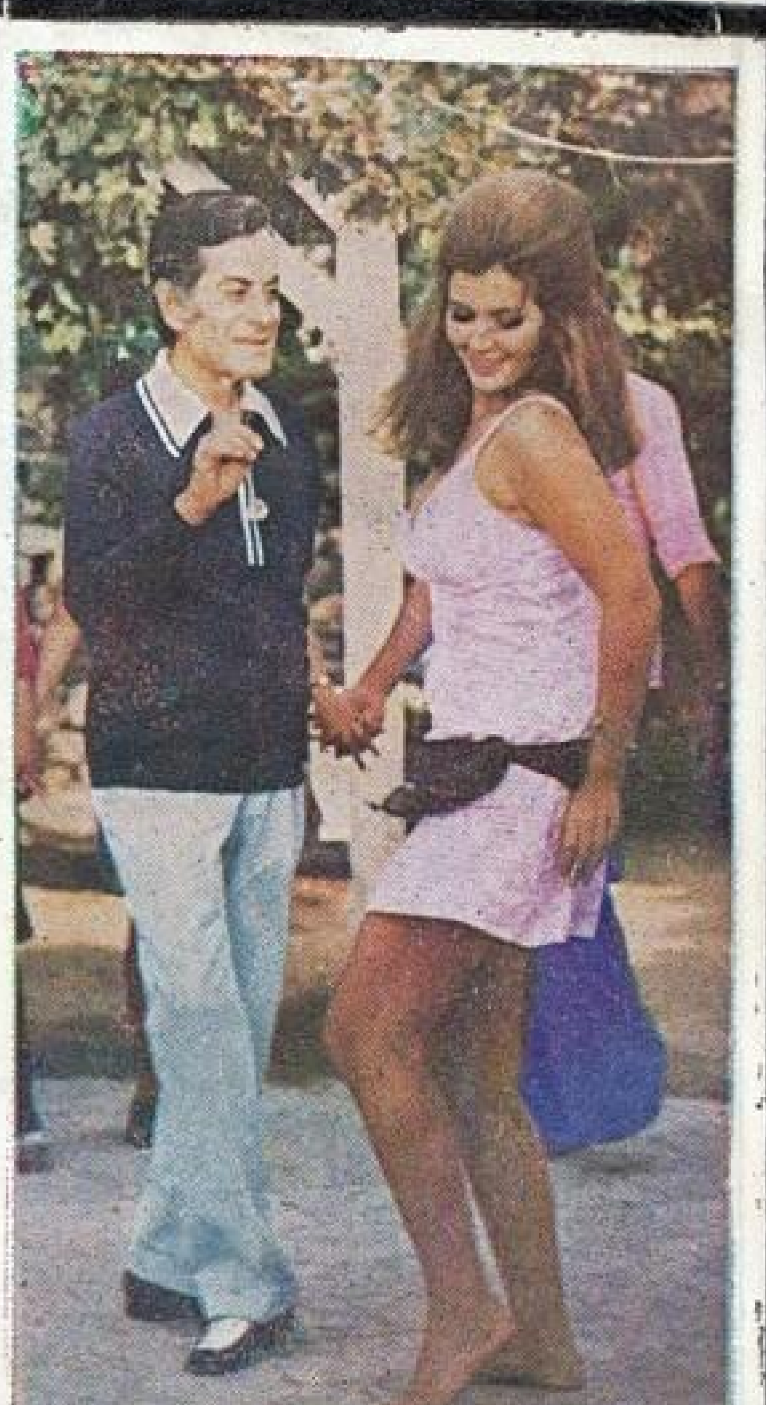
مذكرات فريد الأطرش





مكتبة الجماهير

مذكـرات
فريد الاطرش

١

كان صوته كموجة النسيم الخضراء التي تنبعث من صفحة نهر النيل .

والآه التي كان يطلقها من جراح قلبه كانت تتردد أصداؤها من قمة جبل صنين حتى قمم الاهرام .

لقد عاش حياته اغنية ، والعود الذي كان بين يديه كان صدره .. كان مغنيا يحتضن صدره ، وأوتار هذا العود لم تكن غير شرايينه وعروقه .

الجرح الاول في قلبه كان حينما ماتت شقيقته روحه ودمه اسمهان . ومنذ ذلك الوقت بدأ النزيف . والبلبل الذي كان يدق بجناحه الصغير نوافذ بيوت الوطن العربي يحمل الاغنية في منقاره زنبقة ووردة وخيط نسيم يموت الآن . يموت بعد ان جعل الحياة حلوة وجميلة للناس ، وجعل موسيقى الحياة تفرض انغامها على الهواء العربي .

وكأنه كان يحس باقتراب اللحظة الاخيرة فكتب مذكراته هذه التي كانت جزءا لا يتجزأ من تاريخ الاغنية والموسيقى العربية ، دفع بها الى المحرر الفني لمجلة الاسبوع العربي الذي سلمها بدوره لنا في دار الجماهير .

وها هي ذي المذكرات تأخذ طريقها الى ايدي القراء في نفس اللحظة التي يكف فيها عن الخفقان ذلك القلب الاخضر الكبير .

قلب فنان الجيل فريد الاطرش .

مكتبة دار الجماهير

مذكرات

فريد الأطرش

مكتبة الجماهير

الشباب » ، وليدخل الات غربية عدة الى الفرقة الشرقية كـ « الاورغن » و » الكلارينيت « ، كل هذا دون ان يفقد العود ، رفيق عمره ، مكانه الاصلي ....

ولقد كان اهم حلم تحقق له ان عزفت الحانه في روسيا (يا زهرة في خيالي) ، كما وقام الموسيقار العالمي فرانك بورسيل بتوزيع اربعة الحان له على المستوى العالمي (حبيب العمر ، نجوم الليل ، يا جميل يا جميل ، وزمردة) ففتح له نافذة علي اوروبا . ولكن كل هذا لم يكن ليقدم له على طبق من ذهب ، او فضة ، او يتحقق بغمضة عين ...

لقد عانى الموسيقار والمطرب وتعذب . تحمل مرارة الحياة وبكى وحمد ، منذ كان يغرق في نعيم الحياة إلى ان هوت به الظروف الى القاع ، الى ان عاد فصعد الى القمة ، الى ان احتفظ بها ...

وحكاية فريد الاطرش من كل هذه الجوانب حكاية طويلة ... كتبها زمانه عليه وبللها بكثير من الدموع فكنت معها فصلا فصلا وكما يرويها فريد الاطرش بنفسه ...

« الناشر »

مكتبة الجماهير

مقدمة

من النادر ان يرافق الجمهور فنانا طوال اربعين سنة تقريبا ثم يكتشف ان هذا الفنان بقي على ما هو عليه من انسانية واصالة ، فالتجارب والاحداث والتحديات كلها عوامل تتجمع حول هذا المخلوق المرهف الاحساس ، او تسقط فوق رأسه في بعض الاحيان ، تجبره وتضطره الى التغيير والتبديل ...

... هنا يكمن اختبار الفنان الكبير ...

من هذه الزاوية اجتاز فريد الاطرش الاختبار ونجح فيه عدة مرات ، حتى احتل المكانة التي يستحقها ، دون ان يتخلى في ذات يوم عن طيبة القلب التي اشتهر بها ..

على ان فريد الاطرش اكثر من هذا ، انه موسيقى واغنية عاطفية ووطنية (اكثر من خمسماية اغنية ولحن) وهو ايضا مجموعة افلام سينمائية (حوالي ثلاثين فيلما) وهو امنيات واحلام جسدها في اعماله لعل بعضها ما غناه للوحدة العربية في اغنيته الشهيرة « بساط الريح » التي

ادخل فيها كل الالوان الشرقية من الموال المصري ، الى الموال البغدادي ، الى العتابا الى النغم الاندلسي فاستحق حب الجمهور وتشجيعه في المشرق والمغرب ، واستحق اهتمام النقاد يسبرون اغوار فنه ، واستحق ايضا وايضا تكريم الدول العربية التي احاطته بالالقاب ومنحته الاوسمة ..

وفريد الاطرش الذي يحمل اكثر من جنسية : لبناني ، وسوري ، ومصري يعتبر جنسيته الحقيقية هوية فنه الممتد الى كل الارجاء ... وكأنه بهذا يحدد فنه والمنابع التي ارتوى منها موسيقى واغنية منذ كان طفلا ترعاه أمه وتتنقل به ما بين جبل الدروز ولبنان وتركيا ومصر تحت وطأة ظروف تلك الايام ، وما احتوته من ثورات واعتقالات ... الى ان كبر الطفل وطرح الاسئلة على امه ، الى ان اصبح فتى يسعى ، الى ان بدأ يوزع اوقاته بين العمل والدراسة ، الى ان راح يضع قدمه على اول الطريق ..

اطل فريد الاطرش على عالم الموسيقى والغناء في اعقاب مرحلة خصبة كان قد اعطى فيها سيد درويش الكثير من الاغنيات والالحان ، مما جعل العديد من الملحنين المعاصرين امثال محمد عبد الوهاب وزكريا احمد وغيرهما ان يسيروا على منواله بادىء ذي بدء ، الا ان فريد ما ان بدأ محاولاته الاولى حتى اتجه الى لون آخر من الموسيقى الشرقية : جدد فيها مع الاحتفاظ بطابعها الاصيل ، ومضى ليقدم الاوبريت والتوزيع الموسيقي ولاول مرة في « انتصار

كالرحالة ينتقل من مكان الى آخر تبدأ قصة حياتي. . . .

كرقاص الساعة الذي لا يهدأ علـــى حال تتراقص سطور البدايـــة . . .

كحبات الزئبق تحاول التقاطها فتفر منك ، كنت احاول التقاط الخيوط الاولى من هذه القصة في فترة طفولتـــي فكانت تهـرب منـــي ولكـــن الـــى حين . .

كانت الانباء تتناثر من حولي دون ان اعيها تماما او ادرك اهميتها . فقط كنت اعرف ان والدي فهد الاطرش يقاتل ضـد الفرنسيين ، وان القتال ضد الظلم واجب . . . استطعت بعدئذ

ان اعرف ان في هذه الصفة ما يدعو الى الفخر فكنت افرح واصفق ، فيما كانت والدتي عالية بنت المنذر ترعاني مع شقيقاي فؤاد واسمهان ونحن نتنقل من مكان الى مكان .. اما اذا حدث واصابنا غم او هم فكانت تغني لنا بصوتها الحزين ... كانت تهدأ نفسي وانام ملء جفوني ...

كان العام ١٩٢٤ عندما بدا لي ان في الامر تغييرا ... كنت قد اصبحت في السابعة من عمري . الطفل كما اعتقد لا يعي الاشياء التي تمر من حوله ولكنه يتعامل معها باحساسه ، يعرف عبر شعوره اذا كانت هناك مفاجآت سارة او مواقف حزينة ... انا فهمت بطريقتي كأنني اودع كل ايام السعادة ...

ولدت في جبل الدروز العام ١٩١٧ . ذهبت الى تركيا مع ابي حين كان حاكما لقضاء ديمرجي في العام ١٩٢٠ . امضيت بعضا من طفولتي في لبنان ، وها هو القطار يقلنا الى القاهرة عبر حيفا ويافا وغزه . هل الحياة حقا تقتضي السفر من مكان الى مكان ؟ لماذا لا يكون لنا بيت واحد ؟ لماذا لا احظى برؤية والدي وانعم بعطفه شأن كل الاطفال ؟

و ... راحت والدتي تتطلع بي مليا وكأنها تختبر صلابة عودي ، او كأنها تتعرف على طفلها الذي بدأ ينمو

● ان الحقيقة الاولى التي حدتني بالفعل هو هذا الواقع الذي صرنا اليه دفعة واحدة، كما ان الصدمة التي هزتني هو مشهد والدتي وهي تكد على شغل الابرة اكراما لبعض العيش ●

ويكبر ... ولم تطل نظرة والدتي الي . ان الام تعرف ان ابنها يكبر يوما بعد يوم ... انها وهي ترضعه لبن الحنان تتخيله طفلا كبيرا ... داعبتني وقالت :

ـ ليس هناك ما يخيف ... اننا في الطريق الى بلد ننعم فيه بالامن والعيش . هل تظن يا فريد لو ان في السفر خطر على حياتنا لكنت قد سافرت ...

• • •

وصلنا الى القاهرة فسكنا في حجرتين صغيرتين اشبه ما تكون باقفاص العصافير ... وفي « باب البحر » بدأت اتعرف الى شريط الماضي وشريط الحاضر معا ... عرفت ان في سفرنا الى القاهرة كانت نجاتنا من ظلم الفرنسيين الذين كانوا يعتزمون اعتقالنا انتقاما لوطنية ابي وثورة ابناء عشيرتي ... وفهمت ان قدرنا هذا المأوى وعيشنا بعض المحاولة بعد ان كنا نغرق في نعيم الحياة ...

ان الحقيقة الاولى التي حدتني بالفعل هو هذا الواقع الذي صرنا اليه دفعة واحدة ، كما ان الصدمة التي هزتني هو مشهد والدتي وهي تكد على شغل الابرة اكراما لبعض هذا العيش ...

وكان سؤال دائم يطاردني :

هل يمكن ان يتبدل كل الماضي فجأة ؟ وما ان كان شقيقي فؤاد يلمح هذا الاستياء على وجهي حتى يسرع الي ، ويحاول ان يلفت نظري لكي اكون رجلا ولا اضايق امي بكل الصور التي تصطدمني ...

ولم اعد ازيد على حزن امي حزني ... لم اعد اشغلها بالاسئلة ... صرت اطلب منها ان تغني لي قبل النوم وما ان يقترب من النعاس حتى احلم بعودة ابي ينقذنا من كل شيء ... كل شيء ...

● ● ●

حاولت ان اكون رجلا ولكني لم استطع . هل يمكن ان يصبح الطفل رجلا دفعة واحدة ؟

ما ان الحقتنا والدتي بأحدى المدارس الفرنسية (الخرنفش) حتى اصبحت مهزلة لطلاب المدرسة . كانوا يتجمعون حولي ويسخرون من اسمي . ولم يكن اسمي هو اسم العائلة التي اعرف بها وانما ولكي تقبلنا مدرسة فرنسية كان على والدتي ان تستعير لنا اسما ، اي اسم ... ولم يكن ذاك الاسم سوى « كوسا » ...

اعتدت في صباح كل يوم ان ارى فؤاد يهرع الي للدفاع عني وسط دعابات الطلاب الثقيلة ، واعتدت في كل مساء ان اتوجه الى البيت واغرق في وصلة من البكاء الحاد . وكانت والدتي تعرف كيف تعيدني الى صوابي . كانت تمد يدها الى العود لتعزف وتغني ... واصبحت بدوري امد يدي الى العود واغني ...

على ان ما كانت تخشاه والدتي كان يمكن ان يتموبلحظة اشبه ما تكون بالبرق . في احد الايام راح الطلاب يتحلقون حولي ، ويزيدون في دعاباتهم الثقيلة ، وينادونني باسماءكل اصناف الخضار حتى خلت الموقف مأساة ان لم ادافع عن نفسي . غلت الدماء في عروقي وتصاعدت الى وجهي وكدت افقد اعصابي واصرخ على الملأ انني ابن عائلة الاطرش التي تحارب الفرنسيين ... ولكن في اللحظة الاخيرة خانتني الشجاعة ، تمثلت صورة امي في خيالي ... خشيت ان اضيف الى احزانها حزنا جديدا فسكت على مضض . ولكن الحقيقة التي لم يسعفني لساني على النطق بها ، نطق بها سواي وبكثير من اللامبالاة ...

كيف ؟!

« فريد الاطرش ... »

... واقترب مني المدرس وراح يحدق في وجهي ، بينما رحت احدق في كل شيء حولي الا وجهه ...

كنت اخشى ان انظر الى وجه مدرسي ، لكي لا اقرأ شماتته ، فيما لف الاستغراب زملائي الطلاب : هل يعقل ان يكون فريد كوسا فريد الاطرش ؟

وشعرت بما يشبه الدوار .. في هذا الوقت نسيت كل شيء الا صورة امي ... ولكن نظرات المدرس لم تحتمل صمتي وتجاهلي الامر ، فعاد الى مناداتي .

وما ان وقفت حتـى احسست بانـنـي كتلة من اللحم الطري داخل ثلاجة ، وبجهد كبير خرجت كلمة نعم من فمي ...

واشار الي المدرس بأن اذهب لمقابلة امين المدرسة .. ولم اكـد امضـي الـى مقابلة هذا الاخير حتـى طلب الي ان احمـل كتبـي واغادر المدرسة ...

اخيرا استرددت اسمـي ، ولكنـي فقدت العلم ، ماذا ستقـول والدتـي ؟

وما كـدت اصل الـى البيـت حتـى انفجرت في وصلة من البكـاء ، فراحت والدتـي تهون علـي الامر وتروي لـي الحكـايـة ...

ماذا حـدث ؟!!

كان راسـي الصغير يطير ... لقد تعرضت الى مواقف مهينـة من « زملائـي » الطلاب كونـي « كوسا » ولسـت «اطرشا» ، ولكـن لم يحدث في يوم من الايام ان خرجت عـن طوري لابوح باسمـي ...

لقد كنـت اخشـى ان اوجه هذا الموقف حتى لا اتحول الـى هذا الوضع . هل تصدقين هذا يا امـي ؟

وراحت والدتـي تجفف دموعـي ، وترسم ابتسامـة

علـى شفتيـها ... لعلها الابتسامة الاولـى التي احظـى بهـا منذ زمن طويل ...

في لحظة خيـل لـي ان الدنيا انتهـت ، وفي لحظـة ثانيـة بدت لـي كل الدنيا وكأنها تشرق من جديد : هل هـي ابتسامة الام وما تفعلـه في نفس وليدها ؟

وعرفت اننـي ذهبت ضحيـة صراحة احد الاصدقـاء السوريين (متـري هواويني) لقد صدف أن زار مدرستنا فيمـا كنت اتدرب علـى الغنـاء وابدى اعجابه بي الى احد الاساتذة ... ولم يكتف بهذا القدر ، بل باح باسمـي وشدد عليـه ، وراح يحدث الاستاذ عـن عائلة الاطرش ، الى ان انفجـر الوضع علـى تلك الصورة ...

راحت والدتـي تهون علـي ... وما كادت تمضي بضعة ايام حتـى الحقتنـي بالقسـم المجانـي في المدرسـة البطريركية للروم الكاثوليك . وفي هذه المدرسة عرفت باسمي الحقيقـي ...

• • •

يحرج الانسان من مشكلة ليفتح امامه باب مشكلة ثانية: هل هـو اختبار الحيـاة ؟

ما كدت التحق بهذه المدرسة حتـى عاد واقـع الحياة المرير ليطاردنـا من جديد ، ولكـن امـي ، وما بشكله مـن عبء عليها ، كان خيط المشكلة ومحورها ...

لقد استنزفت من المال كل ما تملـك ...

وباعت من الحلـى كل ما كان يزين يديها وعنقها ...
وعلى ما يبدو ان شغل الابرة لا يسد كل الاحتياجات .
كذلك فان اخبار والدي كمـا يظهـر قد انقطعت ...
اذن ماذا نفعل ؟؟

ولم يطل التساؤل بي وبفؤاد . بدت امـي وكأنها رتبت كل شـيء . لقد قررت ان تغنـي في « روض الفرج » ...

وما كادت تنهـي عباراتها حتـى سيطر الصمت علينا ، انا وفؤاد ، اما اسمهان فلم تكـن في سن يسمح لها ان تعـي هـذا الاختيـار ...

امـي اتخذت قرارها ... اذن علـي انا وفؤاد ان نتخـذ قرارنا ... وتشاورنا ... وقررنا الالتزام بمرافقتها الـى حيث تغنـي ... وعندما كانت تغنـي امي كنت انسى كل شـيء ... كان حزنـي يتبدد فجأة ، كنت كمن يستيقظ علـى صوت طال شوقـي للاستمـاع اليه ...

اما اخي فؤاد فقد كان يتذكر كل شيء ...

• • •

عندما يشتد الحزن بالانسان لا شيء يفرج عنه قدر الفن . الفن كان مفتاح السعادة بالنسبة الي ...

انني منذ استمعت الى غناء وعزف امي وانا اسبح في هذا البحر الكبير كقطرة ...

كما وانني منذ ان رحت امد يدي الى العود واحاول الغناء ، وانا اتوق الى ان اكون في هذا البحر اكثر من قطرة ...

امي التي تحرص على العلم ادخلتني الى المدرسة ، وها هو احمد زكي باشا الذي كان يعرف بلقب « شيخ العروبة » يوصلني الى معهد الموسيقى . لقد كان صديقا لسلطان الاطرش فكتب الي بطاقة توصية لكي احملها الى مصطفى رضا ...

وذهبت الى المعهد ، وقابلت الرجل ، وسلمته البطاقة، فاستقبلني بطريقة تدل على ما للباشا من اقدام ، ولكن طريق الفن لا يقبل الشفاعة ، فها هو الرجل يطلب الي العزف ...

وعزفت قدر ما اعرف ...

وعزفت ما دربت نفسـي عليـه ...

وتقرر قبولـي في المعهـد ...

وضحكت كما لم اضحك من قبل .. واحسسـت ان الحياة بدأت تبتسم لـي .

● كنت سعيدا رغم كل التعب الذي كنت ابذله في النهار، فاحساسي أنني أعيل الاسرة كان يمنحني قسطا من الرضى، وشعوري أنني أتعلم الموسيقى كان يمدني بالموسيقى ●

لا استطيع ان اصف اية قوة مدني بها الفن ... انني منذ احتضنت العود في معهد الموسيقى ورحت اعزف عليه ، وانا احس في قرارة نفسي باحساس مختلف ، وكأنني ولدت في ذات اللحظة التي حركت فيها الاوتار : هل هو لهب الفن كان يسري في عروقي الى ان اهتديت اليه ؟ ام انها تأثيرات امي التي اودعت في ما تعرفه من غناء وعزف ؟..

ولم اشغل نفسي بالبحث ، فالسعادة لحظة من قوة تجعلنا نعيد النظر في اشياء شتى ، لذلك ما ان عدت من معهد الموسيقى حتى تباحثت مع اخي فؤاد فيما كان يقلقه ... وانتهى البحث بيننا بالقرار ، وهو ان لا تعمل

امنا في « روض الفرج » ، وان نعمل كل ما في وسعنا لمواجهة تكاليف الحياة ...

وابتسم اخي فؤاد ، واحسست ان في ابتسامته كل الرضى ، والقبول ، والعزم ...

● ● ●

انسلخ فؤاد عن المدرسة ليتوجه الى عيادة طبيب اسنان في « الموسكي » ويتعلم الصنعة على يديه ، اما انا فقد ذهبت الى محل « بلانتشي » لكي افتش عن عمل . وقبلني صاحب المحل كبائع قماش ، اما في مواسم « الوكازيون » فكان علي ان اقوم بعمل اضافي لقاء اجر اضافي لا يتعدى القروش القليلة ، فكنت امتطي الدراجة الهوائية واوزع الاعلانات على الاحياء ، واصعد الى البيوت اطرق ابوابها واسلم سكانها اعلانات « البشرى السارة » ، وكان نصيبي من الصعود والهبوط نصيب رياضي في ركض المسافات الطويلة ..

على انني كنت سعيدا بعملي رغم كل التعب الذي كنت ابذله في النهار ، فاحساسي انني اعيل الاسرة كان يمنحني قسطا من الرضى ، وشعوري انني اتعلم الموسيقى كان يمدني بالطمأنينة ... وما ان صرفت فترة

عام في المعهد حتى افضى الي الاستاذ رياض السنباطي بالنصيحة ، فطلب الي ان افتش عن نوافذ فنية اعبر منها الى الجمهور ...

التقيت فريد غصن في نادي الموسيقى فجمعنا حديث الفن والحب المشترك للعود . وفي طريق العودة كان علينا ان نستقل « الترام » ، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت واياه اننا نسكن في منطقة واحدة (غمرة) . وهكذا ما ان ودعني حتى كان يدعوني الى زيارته في المنزل .

وذهبت ، وصدف ان زاره المطرب ابراهيم حمودة ، وكان نجما « متألقا ». وفي تلك الليلة عزفت ما امكنني العزف على العود . فسمعت من كلمات الاطراء كل ما يشجع ...

كان ابراهيم حمودة هو المطرب الذي حل مكان عبد الوهاب عندما كف الثاني عن العمل مع فرقة منيرة المهدية، لذلك ما ان انتهى الرجل من الإطراء والتشجيع حتى طلب الي الانضمام الى فرقته للعزف على العود لقاء جنيهات قليلة ، الا ان العمل المتقطع لم يكن يتيح لي بالتوقف عن العمل عند « بلاتشي » ...

كما كان العود يجتذبني اليه كذلك كان الغناء يشدني ... وكنت اغني من الاغنيات الوانا عدة منها ما

هو لبناني ، ومنها ما هو سوري ، ومنها ما هو مصري .
كما وكان يستهويني المطرب محمد العربي ، وكان اقربهم الى قلبي في هذه الفترة ، لذلك ما ان كنت انتهي من العمل في المساء ، حتى اذهب الى احد مقاهي عماد الدين واستمع الى مطربي المفضل في مواويله ولكن دون ان ادخل الى المقهى ، فالتفكير بأمي واختي كانا يقطعان علي اي طريق للانفاق ... كنت اقف على الرصيف ساعة وما يزيد ، فيما كان الزوار يلقون بطرابيشهم الى السقف الى ان ترتد اليهم وهم في حالة قصوى من الاعجاب .
وفي هذا الوقت كان صبي المقهي يتجه الى خارج المقهى ويتكفل بطرد كل المستمعين بالمجان ، وسط سيل من الشتائم ... وكان يصيبني بعض النصيب ...

ولكن متى اغني ؟ ومتى تفتح لي الابواب ؟ ومتى يصيبني الاعجاب ؟

واطرقت برأسي الى الارض ورحت افكر ، وارسم خطواتي نحو البيت وآفاق المستقبل تكاد تتراءى امامي كحلم .

● أن النجاح اذا ما تم في
ليلة بدا كأنه نسيج حلم ...
ان الحقيقة تكمن فيما هو
مستمر وفيما هو دائم ●

كل شـيء تم بسرعة ...

كان الثوار العرب من الدروز قد بلغوا حدا كبيرا من التضحيـة فانعزلوا في الجبال والوديان وقد استهلكوا الكثير من السـلاح والمؤونة ، وفي هذا الوقت فكر احمد زكي باشا شيخ العروبة في اقامة حفلة غنائية يعود ريعها للثوار ، فيما ابدى ابناء سوريه المقيميـن في القاهرة حماسهم لبذل كل ما يلزم ، سواء من ناحية بيع التذاكر ، او من ناحية الاشراف على الحفلة وتنظيم فقراتها ... وحدث ما كنت اتوق اليه ، لقد اقتـرح حبيب جاماتـي الصحافي المعروف ، ان اغني في هذه الحفـلة فلقيت فكرته القبـول لدى احـمد زكى باشا وهكذا كـان ...

في الليلة المنتظـرة صعدت الـى المسرح بعد ان كنت قد صرفت الوقت وانا اقتات القلق ، ولكـن كل الهواجس التـي افترستنـي وكادت ان تنتزع من احلامـي وتوقعاتي وشغفي بالنجـاح تبددت فجأة ... ان المسرح اشبه ما يكون بالعالم الكبير ... انه الماء والهواء والنور للفنان وخاصة اذا ما كانت المناسبة وطنية ... انني لا انكـر ان خوفـي بلغ حجم المسرح ولكن ما ان مددت يدي الـى العود ورحت اعزف منفـردا حتـى اصبحت شجاعتـي بحجم المسرح ...

وغنيت ايضا قصيـدة وطنية تندد بفرنسا وتمجد الثوار وتعـدهم بيـوم النصر ...

وكان نصيبـي من النجاح اكثر مما كنت اتوقـع . لقد احسـن الناس استقبالـي وكتبت الصحف عنـي ...

عدت الـى واقعـي في اليوم التالـي كمـن كان في رحلة سريعة الى النعيم وها هو الان يعود ليتوقف عند عتبة الجحيـم ...

ان النجـاح اذا ما تم في ليلة بدا كأنه شبَـح من حلم ... ان الحقيقة تكمـن فيمـا هو مستمر وفيما هو دائم ... اما ما يطرا في ليلة ويختفي في ليلة ثانية فانه لا يتعدى السحابة

العابـرة ... وخفت علـى نفسـي من ان تحتضننـي السحابة وتسافر وافقـد علامات الطريق ...

لا اعرف على وجه التحديد ماذا حدث عقب تلك الحفلة..

لقد سمعت من الكلام ما يمكن أن يدير رأسي الصغير ..

وتناهت الـي من عبارات المديـح ما يجعلنـي اظـن اننـي الفارس المنتظـر ...

واغراني البعض على ان استقل فألحن لنفسي واغني ..

ولكنـي كنت اشبـه بقشـة في مهب الريح ...

وهربت من كل الكلمات الـى واقعـي ، ورحت افتش عـن مسرح يقربنـي خطوة من طريق النجاح دون ان يدفعني الـى النجاح مرة واحدة ...

كنت اخشـى الدوار ...

كانت بديعة مصابنـي في هذا الوقت ملكة المسـارح الاستعراضيـة ونجمها المتألق ... وكان مسرحها اشبه ما يكون بمدرسة الفـن والنجاح معا ، اذا حدث واحتضنـت فنانا رفعتـه الـى المكان الذي يستحق ، واذا حدث وغضبت علـى اخـر انزلته الـى اسفل ما يستحق ...

وقابلت السيدة بديعة ، وما ان ألمت بقصتي وعاينت موهبتي حتى قررت الحاقي مع مجموعة المغنيين ... وما ان غنيت مع الاخرين حتى تذكرت ما كان قد قيل لي ، انه يمكنني ان استقل ، واغني بمفردي ، فلماذا لا اطرق باب غرفة السيدة بديعة واحاول اقناعها اذن ؟..

وما ان انتهيت من حديثي حتى رمتني بنظرة فاحصة وقالت : فلنجرب ...

وجربنا ... وكانت تجربة ناجحة ...

لقد ذهبت الى يوسف بدروس وطلبت منه ان يؤلف لي كلمات اغنية تشاركني فيها المجموعة كما هو اطار العمل الفني في مسرح السيدة بديعة ...

ونجحت الاغنية ، ومع نجاحها تقرر ان يكون اجري ثمانية جنيهات في الشهر ...

ما اشبه هذه المرأة بكتاب الحياة بوجهيه : تعطيك من جانب ، وتأخذ منك من الجانب الاخر ...

ما كادت فرحتي تغطي راسي حتى بدأت هذه الفرحة تتقلص تدريجيا ... بعد اشهر قليلة غيرت السيدة بديعة برنامجها الغنائي وصدف ان كان ذلك في منتصف

الشهـر فحسمت من راتبـي نصفه ... وحدت بعدئذ ان طلبت الي ان امثل في الاسكتشات التي تقدم ، وان اقدم الحانا ، وان العب الدور الذي أستطيع والـذي لا أستطيع ، فاذا قبلت فانه عملي ... اما اذا حدث ولم اقبل فان كل رفض اعلنـه يترجم في نهاية الامر ونهاية الشهر الى حسم ...

ولم اكـن من ذاك الصنف الرافض ... كلمة « ايوه » كانت دائما في فمـي ، بل انها كانت تسبقنـي كلما نادتني السيدة بديعـة ...

كنت أخشى ان أقول « لا » ، فتقول لي السيدة بديعة في الوقت المناسب « ... لازملك خصم ... »

ولكن بالرغم من كل هذه الطاعة ، لم أستطع ان أصون راتبي من الحسم ...

طريقان كان يرسمـان عالمـي في هذه الفترة ويحددان خطواتـي ... طريق العمل ، وهو يمتد من محل « بلانتشي » الى « كازينو بديعة مصابني » وبالعكس ... وطريق العلم ، وهـو يبدأ من « مدرسة البطريركية » وينتهـي عند حـدود « المعهد الموسيقـي » ... وهكذا ما ان اقترب موعد امتحان الشهادة الابتدائية حتـى كانت الصدمة بانتظاري ، فمواظبتي علـى الذهاب الـى المدرسة لم تكن بالقدر الذي اقبل فيه

علـى العمل ... بل ان مدير المدرسة لم يتوقف عند هـذا الحد ، وانمـا راح يسوق الحجج ومنها ما يتعلق بالفــن :
« هل يرتضـي المنطق قبول تلميـذ بالتقدم الـى الامتحان بعد ان صرفت الوقت بالغناء على المسارح والعيش مع الراقصات» ،

اي منطق يـا استاذ ؟

وحاولت الدفاع عن نفسـي ، فيما كان تصلب الاستاذ يشتـد اكثـر فأكثر ...

● نعرف ان الامتحان يثير في النفس ما يشبه الرعب، وخصوصا بالنسبة الى المجتهدين، ولكن كيف يمكن أن يكون شعور طالب اضاع الوقت بالعمل اكثر مما صرفه بالدرس؟ ●

ما عجزت عن تحقيقه استطاع اخي فؤاد النجاح فيه. دهب الى امين المدرسة واستطاع اقناعه بقبولي في المدرسة، وعلى وجه الخصوص بالسماح لي للتقدم الى الامتحان. وهنا وعده امين المدرسة بتقديم اوراقي شرط ان تدفع الرسوم ...

جاء فؤاد الى البيت ليصفق الباب خلفه ويعلن المفاجأة السارة. وما كادت الابتسامة تطفو على وجوهنا انا وامي وشقيقتي اسمهان حتى انعطف فؤاد في حديثه الى شق آخر من الموضوع فقال بطريقة اقرب ما تكون الى الحركة المسرحية منها الى اي شي آخر:

ـ معاك حاجة يا فريد ...

وفهمت انه يقصد الفلوس ... فسألته على الفور ...

ــ فلوس ؟ عشان ايه ؟

ــ عشان مصاريف الامتحان ...

ــ امتحان وعكننة وكمـان تدفع مصاريف ... ايه ده ؟ لا ما معيـش ...

وهنا تدخلت والدتـي لتحسم الامر فاستدانت المطلوب من الجيران ...

نعرف ان الامتحان يثير في النفس ما يشبه الرعـب ، وخصوصا بالنسبة الـى المجتهدين ، ولكن كيف يمكن ان يكون شعور طالب اضاع الوقت بالعمل اكثر مما صرفه بالدرس ؟

حتـى هذا الحد لم استطـع متابعة التصـور ... احسست انني لو تابعت التحصيل فلن اتوقف الا عند كارثة استبقها ... ولكنني لم اقل ليكن ، بل احسست انني في معركة لا مفر منها ولا مناص ... وقررت النجاح لالف سبب ، اقلـه ان اثبت لمدير المدرسة خطأ تقديره ، ولكي ارد لامين المدرسة حسـن ظنـه بـي ...

واقبلت على الدرس كمـن يقبل علـى وليمة فاخـرة بعد ان انتهكه الجوع ... كنا يومئذ نسكـن في حدائق القبة ،

فكنت اتجه الـى « المطرية » لاعتزل الدنيا واغرق في الدرس المتواصل ، ورفيقـي ضوء ساطع ينبعث من فانوس النور ..

ما اقرب العلم الـى النور : ضوء يشع ...

ونجحت ...

●●●

كانت الفكرة التي تشغلني في هذا الوقت العمل وفي اكثر من مكان ، ومع اي كان ، كي أكفل للاسرة بعض الهناء ، لذلك كنت اتنقل بين الحفلات كعاشق ليل أدمن السهر في كـل مكـان ...

عملت مع ابراهيم حموده ، وصدف أن تعرفت في منزله الى مهندس يعمل في محطة شقال الاهلية فتوطدت المعرفة بيننا سريعا الى حد أنني رحت اغني في هذه الاذاعة ... وعملت ايضا مع بديعة مصابني وماري منصور ، وعليـة فوزي . وكان كلما زاد دخلي كلما انتقلت بالاسرة من شقة الى شقة جديدة . اما فيما يختص بي وبخطوات الطريق المقبلة فلم أكن اعرف عنها شيئا . كان ما يهمني هو الحاضر، اما بالنسبة الى المستقبل فلقد كان من ترتيب الصدف ... ولكن أية صدفة هذه ؟

●●●

كنت على عتبة الامتحان في معهـد الموسيقى عندما اصبت بزكام حاد ، ولم يكن بمقدور الاطباء مدي بالشفاء بين ليلة وضحاها ، فذهبت الى المعهد صبيحة اليوم التالي وانا أشبه من ترصدته الحمى ... كان الاساتذة مصطفى رضا ، وصقر علي ، وسامي الشـوا ، ومحمد فتحي قد جلسوا على مقاعدهم وكأنهم وراء منصة قضاء ، فاقتربت منهم وانا اطمع ببعض عدلهم لاعفائي من الامتحان وتأجيله الى يوم اخر بحجة أنني مريض ، فتداولوا الحكم فيما بينهم بنظرات سريعة ثم اصدروا القرار بالاصرار على الغناء ...

ولكن كيف أغني ؟

واضطررت للغناء وانا على هذه الصورة ، ثم حملت العود ورحلت ، وما كادت تمضي بضعة أيام حتى تلقيت اخطارا بفصلي من المعهد ...

وفكرت ، وفكرت ، ولكن التفكير المتواصل لم يكن الا ليزيد تعاستي . ودفنت رأسي في الظلام لاصحو فيما بعد على ضوء جديد ...

● رحت ابتهل الى الله
لكي يمدني بالقوة ويبعد عني
المرض او اي زكام في الطريق،
اما اذا لم يكن هناك من مفر
فليكن المرض بعد الامتحان
وليس قبله يا رب ... ●

خطاب فصلني من معهد الموسيقى وها هو خطاب اخر في الطريق الي ...

اوقفت كل افكاري فيما كنت افض الخطاب ، الى ان قرأته ، الى ان تنفست الصعداء ...

كان من مدير الاذاعة وفيه يدعوني لمقابلته ...

استقبلني مدحت عاصم بابتسامة تفيض بالود وهو يقول :

ـ هل تذكر يوم استمعت اليك بالصدفة وانت تعزف على العود في احدى غرف معهد الموسيقى ؟

ورددت على الفور :

ـ الا اذكر .. لقد كان لتشجيعك الوقع الحسن ...

قــال :

ـ لقد اعددت لك عقدا للعمل معنا بعد ان انتهينا من التأسيس ... ستعـزف عـلى العود للاذاعة مرة في الاسبوع ...

وبدأت العمل في الاذاعة ، ولكني لم استطع نسيان فشلي امام اساتذة معهد الموسيقى . اعتبرت المعركة قائمة ما دام الفشل قائما ، وقررت ان اطرق باب مدحت عاصم وافاتحه برغبتي بالغناء ، فوافق شرط ان امتحن في البدء ومن ثم استقل في اغنيات خاصة ...

●●●

رحت ابتهل الى الله لكي يمدني بالقوة ويبعد عنـي المرض او أي زكام في الطريق ، اما اذا لم يكن هناك من مفر فليكن المرض بعد الامتحان وليس قبله يا رب ...

وتوجهت في اليوم التالـي الـى الامتحان مع رفيقـي العود وانا على خير ما يرام . يبدو ان السماء قد استجابت لدعائي ... ولكن ما كاد نظري يقع على بعض اعضاء اللجنة حتى شعرت بضيق في صدري . لقد كانوا ذات الاشخـاص

الذين امتحنوني في المعهد ... وفيما كنت اهم بالانسحاب كان مدحت عاصم يقبل علينا ...

وغنيت . غنيت الليالي والموال وبملء احاسيسي ، الى ان راحت الوجوه تتبدل من علامة الى علامة ، وما ان انتهيت حتى كانت الوجوه على قسط كبير من الرضى ...

● ● ●

فزت بامتحان الغناء فمحوت من ذاكرتي اي احساس بالانهزام ، بل انني في لحظة عابرة خلت المسألة اكبر من هذا ... لقد انتصرت ، فالذين حكموا علي بالفشل قبل فترة هم تقريبا الذين منحوني صك النجاح . ولكن ليس النجاح في الغناء هو كل المطلوب ، انه بعض ، والمطلوب الان البحث عن اغنيات مستقلة ..

وطرت الى صديقي يوسف بدروس الذي صرف الليل بأكمله وهو يؤلف لي أغنية « يا ريتني طير لاطير حواليك » فكان علي أن اسهر الليلة التالية واضع اللحن لها ...

ومن جديد عدت لاطير بالاغنية لحنا وكلمات الى مدحت عاصم اطلب موافقته ، فوافق على اذاعة الاغنية ، ووقع

معي عقدا ينص على الغناء مرتين في الاسبوع على ان اتقاضى اربعة جنيهات عن ذلك ...

●●●

اربعة جنيهات ؟

ماذا تفعل هذه الجنيهات الاربعة وانا اطمح بتحقيق بعض ما احلم ؟

بالطبع لم اناقش مدحت عاصم على هذه الصورة ، وانما كان النقاش على هذه الصورة بيني وبين نفسي ، فالرجل من ناحية ابدى اهتماما بي منذ كنت طالبا في المعهد الموسيقي ، وهو على الطرف الاخر من هذا الاهتمام شجعني وارسل في طلبي لاعزف واغني ايضا في الاذاعة ، لذلك كان علي ان اضحي من جديد حتى ولو دفعت الفارق من جيبي...

كنت اطمح الى الاستعانة بفرقة موسيقية ممتازة ، فليس النجاح في الغناء وقفا على الصوت وامكانياته فقط ، وانما ، يتمم النجاح في الغناء عزف الفرقة الموسيقية وبراعتها في العزف ، فاستعنت بعازفين من أشهر فرقة في ذاك الزمان، وهما احمد الحفناوي ويعقوب طاطيوس ، وجمعت الى جانبهما عدد لا بأس به من العازفين ... وكان اتجاه تفكيري

فيما يختص بالفرقة تزويدها ببعض الالات الغربية الى جانب الاهتمام بالالات الشرقية بالطبع لكي نقدم ما يجذب المستمع الينا ، ولكي يكون بمقدوري الغناء ضمن لون جديد ...

وسجلت الاغنية الاولى فكلفتني التدريبات عليها اثني عشر جنيها ، ومن ثم الحقتها بأغنية ثانية « يا حب من غير أمل » ، وخرجت بعد التسجيل خاسرا ...

●●●

لا شيء يسعد الفنان في الدنيا قدر التقدير ، قدر احاطته بكلمة رقيقة ، قدر البوح له او الهمس بكلمة اعجاب صادقة ... ان هذا لو تحقق لاي فنان وهو في بدء الطريق فأن الشعور بالعطاء لديه يبلغ ذروته حتى وان اعطى الفنان في هذه المرحلة بعض كثيره ، فثمة شيء يختلط بالاخر والفنان على هذه الحالة . انه مزيج من الحماس والطموح ... وهكذا تضحي العلاقة الاولى بين الفنان والجمهور مرآة تعكس ذاتها مع كل لقاء ولكن باختلاف نسب التشجيع والعطاء ...

هكذا كان احساسي في ذاك الوقت ، وهو احساس ما زال يرافقني حتى هذا الوقت ...

لقد كان لتشجيع الجمهور الي التعويض عن اية خسارة

مهما كان نوعها ولونها ... وفي هذا الوقت بدات المح في الافق خيطا متينا يربط بيني وبين الجمهور عبر الميكروفون ، حتى أن هذا الاخير اضحى بالنسبة الي الصورة التي ارى فيها احبائي من المستمعين الذين شجعوني منذ غنيت لاول مرة والذين ما زالوا يرافقونني حتى اليوم ...

● وحده الفنان يسعى الى الحب ولا يشبع منه على ما اظن، فالحب هو السلك الذي يضيء الحياة ، ويجدد النفس ، ويبسط الامل جنات ●

كنت ولم ازل اغني عواطفي ودموعي والحنها ، فالعاطفة هي الاسفنجة التي تمتص كل الحكايات وكل التأثيرات وما تفعله في النفس وما تطبعه. من بصمات حادة على القلب ، او ما نخاله في زمن التجربة والشباب بالشيء الحاد ، والى حد تصبح فيه الحياة او الموت على مستوى واحد ... الا ان ما يحدث في العادة أن الايام تمر ، والمراحل تتضح ، والايام في تعاقبها كأمواج البحر العاتية في بعض الاحيان ، تغسل كل شيء او تقتلع كل شيء ، فلا يبق على الغالب من القصص والحكايات الا الذكريات نعود اليها ... وخيرا لو اننا نتذكرها بكثير من الحنان وليس من خلال شحنات من كهرباء او ما يسمى بالعصبية والانفعال ...

كأنني اناقض نفسي بنفسي ، او كأنني احاور نفسي بنفسي وأحاول الاقتناع بنقطة كانت محوراً اساسيا لاكثر الحكايات والتصرفات ، ولكن اليس من الظلم تناول فُقرات مضت من الحياة بالنظرة التي تصبح مقياسا ثابتا لاكثر المواقف والاشياء !

● ● ●

وحده الفنان يسعى الى الحب ولا يشبع منه على ما أظن ، فالحب هو السفك الذي يضيء الحياة ، ويجدد النفس ، ويبسط الامل جنات ...

كنت على عتبة الخامسة عشرة من عمري عندما سحرتني ابنة الجيران ، والحب الاول ، على ما يبدو ، يكون في العادة مع ابنة الجيران ، فالحواجز الاجتماعية ، والتقاليد الصارمة ، والمراقبة العائلية الشديدة تمنع على اي فتى أو فتاة من ان يتحابا عن قرب ...

وهكذا اصبحت نظرة الحبيبة درب الهام ... وابتسامتها مصباح طريق ... وتطورات الحكاية كلها خيوط استلهام لاغنيات الفها لي يوسف بدروس ولحنتها بدمع قلبي ومنها « عمري ما حاقدر انساك » ، و « رجعت لك يا حبيبي بعد الفراق والعذاب » ، و «افوت عليك بعد نص الليل» ...

● ● ●

الحب وحده وطريقة ممارسته تحدد الخطوات الملائمة للفنان لكي يعبر عما يحسه ، لذلك كل اختلاجات الحكاية الاولى وتفاعلاتها المعذبة اصبحت الدرك الذي اسير عليه ... اذا غنيت فأن الكلمة حزينة ... واذا لحنت فأن النغم اكثر حزنا ... وكأن الاغنية كلمة وموسيقى الجسر الوحيد للتعبير عن هذا الحب ...

هكذا عرفت ...

وهكذا تناولني النقاد ...

وهكذا اصبح للحب عندي المنزلة السامية ...

ومن خلال كل هذه الاعمال فتح في وجهي باب الكسب، الاذاعة رفعت اجري الى ثمانية جنيهات ، وشركات الاسطوانات اصبحت تفاوضني على تسجيل الاغنيات ، والسيدة بديعة مصابني قدرتني ووضعتني في المكان الذي استحق ، واختي اسمهان كطلة الصباح ونسيم المساء تتقاسم معي متاعب الحياة ... ويا أرض اشتدي ما حدا قدي ...

● ● ●

كالطير الطليق يتنقل من غصن الى غصن ويغرد بفرح

الربيع كان شعوري ... الا ان الطوق الوحيد الذي كـان يسجنني في قيده ويشدني الى واقعه هو تعاملي مع الاذاعة، فمي بالرغم من انها رفعت اجري ، الا ان النجاح يبقى كالبحر تعبره من مكان الى مكان ، لا لكي تتصور الوصول مثلا ... وانما لكي يتراءى لك بأن الافق ما زال في البعيد ... فالنجاح يفرض على الفنان الحركة الدائمة والتطور المستمر ، كما ويحتاج ايضا الى المحافظة على قيمة هذا النجاح ... وفيما كان اجري يرتفع مع كل نجاح احققه في كل المرافق ، كان الاجر في الاذاعة على حاله ... ولقد اعتدت عبر لقائـي مع مدحت عاصم ان اناقشه في هذه المسألة ، واعتدت ان أتلقى منه ذات الجواب : انها لوائح الاذاعة ...

كنت اسكت على الغبن اللاحق بي اكراما لفضل الرجل علي ... وفي هذا الوقت حدث ان قدم استقالته من الاذاعة وجيء بمدير جديد ، وما ان رفض المدير الجديد طلبي حتى كنت قد قررت بأن تقدم الاذاعة اغنياتي على سبيل الهدية، وهكذا كـان ...

لم يكن الكسب المادي مبتغاي ، انما توقي كله كـان يتركز على نقطة اساسية ، ان تشملني الاذاعة بتقديرها ازاء كل التطورات ...

● دارت الكاميرا فدار قلبي معها ... وتوقفت فلم يتوقف دوران القلب ... كان خليطا من فضول وقلق وترقب يشبه مشاعر الام لحظة الولادة ●

كما رفض شقيقي فؤاد من ان تحترف امي الغناء عليه الاستياء ، كذلك رفض ان تحترف اختنا اسمهان الغناء . .

كيف ؟ وكيف ؟ ويمكن ان تتخيل الباقي ، وكأن كل تقاليد جبل الدروز مودعة امانة في عنقه ، وكأن الغناء بالتالي عمل يتنافى مع الاخلاق ...

ولكن اسمهان التي تتمتع بحنجرة غنائية صافية تجعل من الحلم حقيقة في متناول الاذن ، لم يكن بالامكان حجب صوتها عن الميكروفون مهما كانت الصعوبات ...

وجدت اسمهان نفسها تغني بحكم الواقع الذي عاشته . امي من ناحية ، وانا من ناحية ثانية ، الى ان راح صوتها ينمو ، وذاكرتها الموسيقيــة تشتد ، وعودها الطري ينضج ...

كانت اسمهان تغني في الجلسات العائلية فيطرب لها كل منا ، واصبحت تغني في سهراتنا فيعبب بها الجميع .

وحدث في ذات ليلة ان سمعها عدد من الاصدقاء امثال زكريا احمد ، وداود حسني ومحمد القصبجي وغيرهم فتحمسوا لها ورأوا انه قد اصبح من الملائم ان تغنـــي للجمهور . هنا اعترض فؤاد ورفض ومن ثم كان عليه ان يرضخ امام اراء الاكثرية : امي واسمهان وانا ...

وغنت اسمهان من الحاني «نويت اداري الامي» ، و «وعليك صلاة الله وسلامه» ، و « رجعت لك يا حبيبي » فكانـــت مدهشـــة ...

●●●

وجه اسمهان كان طابعا حسنا علي ، فما ان غنت حتى كانت السينما تطرق بابي وتسعى الي ...

كان تلحمي وبيضا في هذا الوقت يقدمان انتاج فيلم بعنوان « انتصار الشباب » اخراج احمد بدرخان . وما ان عـــرض الفكرة علي للعمل انا واسمهان ومن ثم عرفاني الى حسني نجيب مدير ستوديو مصر حتى اعترضتنا مشكلة عمن يضع الالحـــان !

اقترح مدير الاستوديو الاستعانة بكبار الملحنين امثال السنباطي والقصبجي ولكني رفضت . واقترح ايضا أن اضع الحان اغنياتي فيما يستعان بمواهب الاخرين لاغنيات اسمهان فرفضت ايضا باعتباري اكثر فهما لصوتها من اي ملحن ...

وسوي النقاش في اخر الامر . وجدت نفسي انشغل بالعمل بكل احاسيسي واضع الحان اغنيات « يا للي هواك شاغل بالي » ، و « ايدك في ايدي تسير والمولى راعيها » ، و « ليالي البشر يا أحلى الليالي » ، و « اوبريـت ليالـي الاندلس » حريصا على تقديم كل جديد ...

● ● ●

دارت الكاميرا فدار قلبي معها ... وتوقفت فلم يتوقف دوران القلب ... كان خليطا من فضول وقلق وترقب يشبه مشاعر الام لحظة الولادة ...

وعرض الفيلم وانتهى ومع نهايته احسست بشعور اشبه ما يكون بخيبة الامل . احسست في لحظة كبرى وكأن كل احلامي تنهار وانني لم اجن على نفسي فقط وانما جنيت على اختي ، ومشيت باتجاه البيت ...

كان العرض خاصا ، وفي غـد اليوم التالي سيقول الجمهور كلمته التي لا تقبل النقض ولا تعرف المجاملة ...

وحاولت أن أهرب من كل الهواجس التي راحت تنتابني ولكنه القلق اطار النوم من عيني ...

● ● ●

ما اقساها لحظة ساعة تطرح عملا للجمهور ومن ثم تجلس لمراقبته ، ففي هذه اللحظة لا يكون بمقدورك ان تمنع عنك كل الافكار التي تراودك ... والسيء في الامر ان كل التفاؤل يغيب ولا يبقى هناك الا التشاؤم ... وما يجلبه من اسى لا مبرر له في كثير من الاحيان : هل هو الشعور بالمسؤولية ؟

ما ان خيم الظلام على صالة العرض حتى اخذت طريقي الى مقعد بعيد لا رقيب واراقب ما يجري اثناء العرض من قبول أو رفض ...

واحسست وأنا في الطريق الى مقعدي أن كل شيء يتركز على هذه الحفلة ، فان نجح الفيلم اكدت نجاحي ، وان لم ينجح فكأنني قد أضعت كل شيء ...

وكأي عمل جديد يتعرف اليه الجمهور ، كان البرود في بادىء الامر هو المسيطر على الناس ، ورحت اتابع المراقبة ولكن دون ان المح طيف خيط من التفاؤل ... ولم استطع

الجلوس في مقعدي فترة اطول . كنت اشبه بمن يجلس فـوق قنبلة موقوتة يمكن ان تنفجر في اي وقت وتطيح بي وبأعصابي، المتعبة ، فغـادرت المقعد لاختفي في اي مكان لا يصـل اليه الناس ...

وفيما كنت اقاوم كـل الصور السوداء بضراوة وعنف واصرار ، فجأة كنت أرى امامي حسني نجيب واختي اسمهان يقولان لـي :

ـ مبروك ... الجمهور علم بوجودك هنا ... فاطلع والقي التحية عليه ...

وقبلت اسمهان.وامسكتها بيدها لاتجـه واياها لتحيـة النـاس ...

ان شعور الفرح بعمل فني يستحسنه الجمهور ويجيد تذوقه نشوة لا يمكن ان توصف ...

● وفيما كانت السعادة
تحملني الى أعلى ذروة من
الفرح كان الحزن في ذات
الليلة يهبط بي الى السفح
ويفقدني الوعي ... ●

يميل الفنان الى الضياع في بعض الاحيان ، وكأنه من خلال ضياعه هذا يمني النفس بالعودة الى سلم الانغام بشحنات جديدة من العطاء . ولكن الفنان الحريص على العطاء بالفعل هو الذي يعود حقا الى الطريق الملائم في الوقت المناسب ...

انا عرفت في حياتي عادات مستحبة وعادات غير مستحبة ولعل بعض تلك ما يتصل بالمقامرة ...

كان ذلك في ذات الليلة ، عندما التقيت في كازينو بديعة بأحد المعجبين بي ، وكانت تربطني صداقة به ، وما أن وقع نظر هذا الصديق علي حتى سارع الى مصافحتي ومن ثم ليدعوني للسهر في مكان ما ، اي مكان ...

وتوقفنا أمام نادي قصر النيل ...

● ● ●

اضواء ، اضواء ، اضواء ، ما اقرب هذا المكان الى ستوديو سينمائي ... هنا الجميع يعرفون ادوارهم ، واللعبة، على ما يبدو ، هي البطل ...

ولعب صديقي وكسب ، واعاد الكرة فكسب ايضا. وهنا تلفت الي وقال : وجهك حسنا علي ... الا ترى انني أربح ؟..

انني في الواقع لم اكن اعرف ما يجري تماما ... متى يربح صديقي وكيف ؟ ومتى يخسر ولماذا ؟ وعندما طلبت اليه ان يبين لي لعبة الورق هذه واسرارها تطلع الي في نظرة سريعة ثم قال : ان في الايام ما يتسع لكي تعرف ...

وكان عالما جديدا بالنسبة الي ...

عندما تدخل الى عالم جديد ولاول مرة يسيطر عليك الفضول وقد يدفعك للمعرفة ، والى المغامرة ، وهذا ما فعلته في اليوم التالي ، اذ انني التقيت الصديق ودعوته للسهر. وعندما سألني اين سنسهر ؟ ضحكت وقلت : أين سنسهر ؟ سنسهر في نادي قصر النيل ...

وضحك بدوره ...

كنت بالامس قد اختزنت كل الشريط الذي مر أمامي ...

ان لعبة الورق ، والمقامرة ، فيها شيء من الحظ وشيء من الحرفة ، وهذا ما لا يمكن ان يتم سريعا ... انها تقتضي الملاحظة الدقيقة والذاكرة القوية ، والاعصاب الباردة . ولعل الملاحظة التي تقتضي الانتباه والتسجيل ، الاستغراق الكامل الذي يسيطر على اللاعبين ، حتى تخالهم وقد نسيوا كل ما يتصل بهم ويتعلق ، الا باستثناء ما يدور حولهم ...

وجربت حظي فكسبت ...

واعدت التجربة فكسبت ايضا ...

وجربت حتى ادمنت على اللعب . كنت أربح ، وكنت اخسر ، الى ان دربت نفسي على الاقلاع عن اللعب ، فالذين يعطون من ذوب انفسهم ، يصعب عليهم ان يسلموا اعناقهم لما يسمى بلعبة الحظ ...

وهكذا فعلت ...

● ● ●

وعرفت في حياتي حبي للخيل ، وان كان لهذا الحب تاريخه القديم لدي ، فنحن عندما نولد بدلا من ان يرووا علينا القصص التي ترويها الجدات والامهات على الاحفاد والابناء ، يغرسون نبتة الحب للخيل في نفوسنا ، ويملأون ذاكرتنا بالكثير عن بطولات هذا الفرس الذي يمتطيه الفارس ...

أمي تكفلت بأن تبث في الحب للخيل ضمن اطار صور البطولات ، وصديقي الذي قادني الى نادي قصر النيل دعاني

للذهاب الى ميدان سباق الخيل ... ولم يكن يحتاج الى الالحاح ...

واذا كان الصمت يلف في العادة الكازينوهات فأن الصخب يلف على الاكثر ميادين سباق الخيل ، فهنا الوجوه من خلال اشواط السباق تبدو وكأنها تسابق الحظ ايضا بفرح في بعض الاحيان ، وبحزن في أكثر الاحيان ...

وفي احدى الجلسات التي كانت تجمعني مع اصدقائي هواة الخيل كان الحديث بيننا يدور عن الخيل وعالمها ، وفيما كنت اباهي واراهن بأن حصاني سيكون الفائز ، كان الاصدقاء يعاكسونني بأن حصان سواي هو الذي يفوز بقصب السباق..

وصدقت توقعاتي ففاز حصاني وكست الجائزة ... وفيما كانت السعادة تحملني الى اعلى ذروة من الفرح كان الحزن في ذات الليلة يهبط بي الى السفح ويفقدني الوعي ...

لقد حمل الموت اسمهان على الطريق الزراعي عندما سقطت سيارتها في الترعة فيما كانت متجهة الى « رأس البر » لتريح اعصابها بعض الوقت قبل ان تستأنف العمل في فيلم « غرام وانتقام » ...

اذن ذهبت اسمهان في رحلة طويلة ...

وكدت أجن ...

وبغياب اسمهان فتح جرحا كبيرا في نفسي لم تنقذني منه — كما خيل الي في بادىء الامر — الا المقامرة وبعنف ... كمن يريد أن ينتحر ...

● انا اعتقد الفنان لم
يخلق للزواج . الفنان يتزوج
فنه وهو ينجب الحانا
واغنيات وافلام ●

عندما يؤدي بنا الحزن الى اخر دروب اليأس يطل علينا الحب ليوشوش لنا بأمل السعادة المنشودة ...

عدا قصة الحب تلك ، التي عشتها مع ابنة الجيران ، تبدو لي قصص حبي الاخرى كأنها حلقات متواصلة في سلسلة الصراع ، فعندما يقع الفنان في الحب فأنه يسخى بكل عواطفه، ولكنه اذا احس انه اصبح قاب قوسين او ادنى من الزواج فأنه يفر منه هاربا ، او يصدف أن تعاكسه الاقدار وهذا ما حدث لـي ...

●●●

كنت في ميدان السباق عندما قدمني صديقي الى حسناء

من حسناوات المجتمع (...) وما ان تم التعارف بيننا حتى راحت هذه الحسناء تبثني الاعجاب ...

كان اللقاء الاول ومن ثم تطورت اللقاءات بيننا الى حب اصبغ علي لونا من الوان السعادة ...

اجمل ما في الحب ذاك الشعور الذي يولده في النفس والقلب ، والعين ... تصبح الحياة عندئذ رائعة كالموسيقى ، جميلة متناسقة الالوان كلوحة الفنان . كما وافضل ما فيه ذاك الاهتمام والحنو الذي تغدقه المحبة على حبيبها في العادة حتى تجعله يخال نفسه انه روميو عصره ...

ما ان احسست بذاك الشعور السحري يقربني من تلك الحسناء ويقربها مني حتى بـدا لـي انني فقدت الاحساس بالوحدة ...

كانت تحيطني بكل اهتمام ، وتصغي الي فما وحديثا بكل جوارحها ...

ولكن ما ياتي به الحب تاخذه الغيرة العمياء ...

●●●

قصة حبي الثانية او الثالثة بدات في الاستوديو اثنـاء تصوير فيلم « انتصار الشباب » . كانت هناك فتاة في السادسة عشرة من العمر تفتش عن دور لها في الفيلم ، وما ان عثرت على العمل حتى راحت تطاردني الاعجاب ...

كنت اصادفها وهي تنمو وتكبر فأشجعها على تقدمها الى ان حدث في احدى المرات ان سهرت في ملهى « الاريزونا » ، وما ان اعلن المذيع عنها حتى احسست شعور رقيق يغـزو قلبي . اطلت لترقص فرحـت اصفق لها بحماس ظاهر ، وخالجني الشعور انها كانت ترقص لي . . .

تطورت القصة وشاعت وتركزت الاضواء علينا معـا طيلة سنوات ، الى ان توقفت عند النتيجة المعروفة :

جاءت ذات يوم وسألتني : لماذا لا تتزوج ، هل حقا كما يقولون لانك اميرا من اسرة الاطرش ولا يفترض بالامير الزواج من راقصـة ؟

وحاولت ان اشرح لها موقفي من الزواج، فأنا أعتقد أن الفنان لم يخلق للزواج . الفنان يتزوج فنه ، وهو ينجب الحانا واغنيات وافلام . الا أن الثورة كانت قد اجتاحت سامية جمال فأنتهى الحب بيننا بزواجها . تزوجت يومئذ من الاميركـي شبرد كنغ . . .

● ● ●

عندما عدت من باريس في ذات رحلة كانت الى جانبي الراقصة ليلى الجزائرية . وكنت قد التقيت بها في احدى الملاهي الباريسية الراقية فأعجبت بها وفكرت في تقديمها في افلامي . .

كنت في هذا الوقت كالطير الذي اثقلته الجراح فوجدت في ليلى من لطف المعشر ، وسرعة الخاطر ، ورقة الحاشية

ما يبدد كل الظلال القاتمة من حياتي . كأنه الاعجاب كان وليس الحب ... أو كأنني التقيتها وانا في مرحلة انتقال من حب مضى الى حب سيطل ...

وهكذا ما ان كان حبها لي يكبر حتى عاد ليتراجع ...

نهضت في صباح يوم لاقرأ الصحف جريا على عادتي ، لا سيما وان ثمة انباء كانت تنشر عن زياراتي لناريمان ... وصدف في ذاك الصباح أن نشر احد الصحافيين حديثا يستطلع فيه والدتها السيدة أصيلة عن حقيقة ما يشاع ويذاع ... وما كدت انهي القراءة حتى احسست بالنار تحرقني ... لقد قالت السيدة أصيلة انني غير كفء للزواج من ابنتها ، فأنا فنان وابنتها ملكة سابقة ، وانني لا افهم ما يسمى بالصداقة ...

عند هذا الحد كان كافيا ان تتبخر امنية الزواج من ذهني ...

لقد كنت بالفعل افكر بالزواج من ناريمان بعد ان احببتها كامرأة في اسرة ، ووجدت فيها انموذجا يروقني ...

وما ان حاولت النهوض من فراشي حتى سقطت على الارض ... وجاء الاطباء والتفوا من حولي ، وفيما كنت اتصور المسألة انها النهاية كان الاطباء يهمسون : انها ذبحة صدرية ...

● وجـاء الدكتور ليشهـد الحادثـة وهو في دهشة مـن امره : « كان لا بد ان تمـوت من أثر السقطة ولكنك عشت لتؤكد بأن ارادة الله فوق كل شيء » ●

اثناء سجني في الغرفة المغلقة كانت تسليتي الوحيدة الرد على تلفونات الاصدقاء وقراءة المجلات والصحف ...

صدف في ذات مرة أن جاءتني ايمان — زوجة فؤاد يومئذ — بمجلة ما ان قلبت صفحاتها حتى توقفت أمام صورة فتاة من عائلة مرموقة كنت قد شاهدتها مرارا في ميدان السباق ...

طلبت من ايمان وفؤاد الذهاب الى اسرة الفتاة لكي يخطباها لي ، وما كدت انتهي من حديثي حتى كانت الدهشة تسيطر عليهما ...

ودخل فؤاد في الحوار معي فقاطعته ورحت اذكره بالحاحه الدائم علي للزواج ، ولفت نظره انها فرصتي الوحيدة

للزواج ، فأنا احس بالوحدة اكثر من أي وقت مضى ، واشعر بحاجتي الى الزوجة اكثر من اي وقت مضى ...

وهز فؤاد رأسه علامة القبول وذهب وايمان الى الاسكندرية ليخطبا لي الفتاة ...

كأنني اتزوج بالمراسلة ، فليكن ... ولكن ما ان عادا في نهاية اليوم حتى رميا لي بالمفاجأة ، لقد قال والدها أن الفتاة مخطوبة ، وحفلة الزفاف على مسافة اسبوع ، وثمة فكرة تراود الاسرة وهي ان اقوم بنفسي باحياء الحفلة ...

●●●

ورميت نفسي في أتون العمل من جديد ، فليس هناك من علاج يداوي الحب قدر العمل ، ان العمل وحده كفيل بأن يحملنا الى شاطىء النسيان ...

وفي ذات مرة وبينما كنت اصرف اليوم في غرفة « المونتاج » سقطت من جديد ...

كان الوقت ظهرا فنقلت الى البيت ، وما ان اجتمع الاطباء حول فراشي حتى سيطر عليهم الوجوم فقالوا لفؤاد : « نرجو الا يتحدث مطلقا ، فأن قلبه يتربص به ... انها الذبحة الثانية ... »

وتدخل القدر من جديد ...

كانت الليلة رأس السنة ، وانا اشبه ما اكون في حالة احتضار ، وفؤاد منهمك في التحدث الى اي طبيب بواسطة التلفون . وعندما ادرك أن الامر بلا فائدة حمل نفسه الى

« اوبرج الاهرام » واحضر عددا من الاطباء بعد ان عــرف ان بعضهم كان يسهر هناك ...

دخل الاطباء الى غرفتي وتوقفوا اما محالتي ومن ثم قالوا لفــؤاد : « لا تترك شقيقك لوحده . لقد بذلنا كل ما فــي وسعنا ، ولكنها النهاية » .

وفيما كان فؤاد يصلي ويدعو الله ان ينقذني ، اردت في هذا الوقت الذهاب الى الحمام، فطلبت من الممرضات الخروج. وبعد لحظات سقطت على الارض من جديد ...

فتحت الممرضات الباب ليتبادلن نظرات الفزع ، وما ان اقتربت احداهن مني حتى وجدت قلبي ينبــض اكثر من ذي قبــل ...

وجاء الدكتور ليشهد الحادثة وهو في دهشة من أمره : « كان لابد أن تموت من أثر السقطة ولكنك عشت لتؤكد بان ارادة الله فوق كل شيء » .

وسألت الطبيب :

ـ ماذا حدث ؟

أجابنــي :

ـ لقد جاءت السقطة لتحرك قلبــك بعنف فاستردت الحياة ...

●●●

انفعالات ، وهموم ، ومشاغل و... اصبت بالذبــة الصدرية الثالثة ، ولم تكن في عنف الثانية وانم تفوقت فــي

شدتها على الاولى . وعدت الى الفراش من جديد ، والى النصائح ذاتها ، وما ان غادرت سجن المرض متسللا الى اجواء العمل الرحبة حتى كان الاطباء يدهشون للتصرفات التي اقدم عليها ، وللجهد الذي ابذله في العمل . وكانت تجمعهم جلسات مع اخي فؤاد خلاصتها تقتضي الرحمة بنفسي وبقلبي الذي يتربص بي في كل وقت ... وما ان التقيتهم حتى يمطرونني النصائح اين منها النصائح العشر ...

لقد كنت ولم ازل مؤمنا بارادة الله التي هي فوق كل ارادة ، وانا من هذه الناحية مؤمن كل الايمان ، فلماذا اذن اسدال ستائر النسيان علينا ونحن في الحياة ، ولماذا اذن انعيش تحت وطأة دقات المرض الرتيبة : انني لو نفذت تعليمات الاطباء على تلك الصورة القاتمة لقدت نفسي الى الموت الحتمي ...

« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » ، وهذا ما تأكد لي من خلال مواقف مرضية عدة ، وأزمات صحية شهيرة ...

وما أن كنت اجتاز فترة النقاهة في ذاك الوقت حتى غردت حولي قصة حب شهيرة ومن ثم حطت على القلب المتعب لتنعشه ..

كانت شادية ، فاعادت البسمة الى حياتي ، الى ان انتهى الحب بيننا بزواجها ...

● علمتني الحياة انها تيار
مستمر متغير يتطلب العناد
والحركة والمقاومة اما من
يتوقف فان التيار يجرفه
ويغرقه ●

اخيرا .. ماذا تعلمت من الحياة ؟

أنا اعتقد ان كل تجربة درس يمكننا ان نستفيد منه الكثير ، وان نتعلم منه الكثير ...

علمتني الحياة وانا في أول الطريق ان احترم العمل واضعه في المرتبة الاولى قبل ان اتذوق طعم النجاح والشهرة ، وقبل ان تتذوق اسرتي شيئا من السعادة والاستقرار ...

كما وتعلمت درسا اخر هو الصبر والصمود امام اقسى صدمة عانيتها وهي وفاة اختي اسمهان ...

على أن ليست كل تجارب الحياة قاسية مريرة كما نعتقد اثناء مواجهة المصاعب . للحياة ايضا وجهها المفرح وهذا ما بهون كل شيء على النفس ، ويملأ القلب بهجة وحماسا ...

هذا هو الفهم الصحيح للحياة ، والادراك للوجه الطيب الخير منها ، فأن مجرد احساس بأنني اعيش ، واتحرك ، واتكلم ، واحس ، واشعر ... مجرد هذا الاحساس في ذاته شيء كبير وعزيز وغال جدا وكل هذه النعم لا تتوافر مع الموت ...

• • •

أول ما تعلمته بعد ان تخطيت سن الطفولة ومرحلة التعليم الابتدائي ، ان الصدق والصراحة والاخلاص وحب الناس كلها قيم عزيزة يجب تزكيتها ورعايتها حتى تنمو وتزدهر داخل نفوسنا . وقد روضتني اسرتي ، وخاصة امي ، على احترام عاطفة الحب بكل الوانه ومعانيه ، وعودتني انا واخوتي على نبذ الحقد والكراهية ...

وهكذا دفعني الحب دفعا قويا الى الموسيقى والغناء فتجاوبت معهما بكل ما في القلب والمشاعر من ميول واستعداد . وبقدر ما كان ادراكي لنيل الهدف وشرف الغرض ، كان استعذابي وحبي لمرارة الكفاح ...

في غمار هذه التجارب تعلمت انني لو توقفت يوما عن العمل لتأخرت وضعت في غياهب الطريق ، فالحياة تيار مستمر متغير يتطلب العناد ، والحركة ، والمقاومة ، اما من يتوقف فأن التيار يجرفه ويغرقه ...

تعلمت أن سبيلي الوحيد الى النجاح في الحياة هو الاستمرار في العمل بصفة دائمة فما دمت قد اعتبرت نفسي في بحر المنافسة فأن توقفي عن الحركة معناه الغرق ، كما أن قيامي بجهد قليل معناه بقائي في مكاني دون تقدم والحياة لا تنتظر المتأخرين ولا ترحمهم ...

●●●

وعلمتني الحياة انني كلما جمعت جهودي وركزت طاقتي في عمل فأنني لابد أن اصل الى ما اريده وان احققه على الوجه المطلوب . ومن هنا جاء تصميمي واصراري على التفرغ في اكمل صوره ...

وفي الطريق الطويل كنت المس في كل خطوة درسا وعظة وعبرة غيرت الكثير من تصوراتي وافكاري السابقة . ايقنت انه لا يوجد ما يسمى حظ لانني لم ار له شبحا او ظلا اثناء المحن التي مرت بي وبأسرتي ... ان كلمة الحظ هذه كلمة خرافية يرددها الكسالى . كلمة يقولها المهزومون لكي يبرروا بها افكارهم وهزيمتهم . وتكشف لي ان الحظ الحقيقي — أن كان موجودا — فهو لا يعرف الا المنتصرين . انه يعطيهم فوق انتصارهم انتصارا آخر .

●●●

وعرفت عن تجربة انني يجب ان احسن الظن بالناس حتى المس منهم العكس الذي يجعلني اسيء الظن بهم ... وهذا ما جعلني لا اقتنع بكل ما اسمع ولا بكل ما ارى لانني اولا وقبل كل شيء احبهم ، واحب الحقيقة ايضا ، ولا خير ابدا ان ازن كل ما اسمع وارى بميزان العقل لاضع يدي بسهولة على الصحيح واتجنب الخطأ . ولقد تعلمت هذا بعد خوض تجارب كثيرة ...

وعلمتني الحياة ان اليوم الذي يمر لا يعود ابدا ، وانه ليس بالامكان ان يعود مهما كانت المحاولة والبذل . الوقت هو أثمن ما في الحياة واغلى من كل كنوز الارض ...

• • •

وتعلمت من الحياة انني مهما بلغت او قطعت من الطريق فانني سأبقى اتعلم وادرس وانهل من ينابيع الفن والمعرفة ، ففي اعتقادي ان كل من يصل الى نهاية الطريق يحكم على نفسه بالموت ، وعلى حياته بالجمود والنهاية ...

واخيرا وبعد كل ما ذقت من تجارب ، وصادفت من عقبات ، وعشت من أيام ، عرفت حقيقة لا يتطرق اليها شك وهي ان البقاء للاصلح ...

• • •

فيما يلي بعض التحقيقات الصحافية مما كتب عن الفنان الكبير فريد الاطرش بعد موته ... الفنان الذي وهب عمره من اجل الموسيقى العربية ، وقد اخترنا هذه التحقيقات والمواضيع لانها كانت اكثر تعبيرا عن تقدير الجماهير العربية لفنانها الراحل الكبير

مـــات الامير

توقف قلب فريد الاطرش ... الى الابد ... توقف القلب الكبير الذي لم يحمل يوما غير الحب والوفاء لكل الناس ... مات امير العود ، وامير الغناء وامير الكرم والوفاء والاخلاص . واهتزت لموته قلوب ملايين المعجبين في الامة العربية جمعاء ، وعبرت عن حزنها العميق بالبكاء والدموع والنحيب ، وباطلاق الرصاص بغزارة . واحتشدت الآلاف امام بيت الطائفة الدرزية في شارع فردان ببيروت لتقديم العزاء لاشقائه ومحبيه . كذلك امتلأت شوارع الفياضية ، حيث يقطن الفنان الراحل ، بالآلاف من البشر ، لوداع جثمان فنانها الراحل الذي أفنى عمره في خدمة الموسيقى ، قبل انتقاله الى مصر . ومئات من هؤلاء المعجبات والمعجبين حاولوا اقتحام منزله الموصد بالاقفال حفاظا على الجثمان المسجى داخل غرفة نومه ، وحتى لا يبلغ حزن الناس الى حد الهجوم على الجثمان المحنط بهدف الاحتفاظ بقطع من ثيابه . وكانت قوة كبيرة من رجال الامن تحرس المنزل الذي لم يغلق بابه يوما في وجه احد ، وتمنع المئات من الاقتراب من الباب الخارجي . وقبل ان يتم نقل الجثمان الى القاهرة وصلت وفود غفيرة من بعض البلدان العربية ، لا سيما من جبل العرب في سوريا ، لوداع فناننا الكبير ،

وتقديم أحر التعازي ... كما قامت الهيئات الرسمية في لبنان – بالاجماع – بتقديم العزاء في بيت الطائفة الدرزية ، وكان في طليعة المعزين فخامة رئيس الجمهورية الاستاذ سليمان فرنجيه الذي أناب عنه وزير التربية الاستاذ ماجد حماده ، وقدم لشقيق الراحل وسام الارز اللبناني باسم رئيس البلاد تقديرا منه لخدمات الراحل العظيمة في ميداني الموسيقى والغناء .

● تفكيره بجمهوره لم يفارقه حتى في ساعات الاحتضار الاخيرة . وخلافا لاوامر طبيبه اللبناني الدكتور نجار الذي حاول عبثا انقاذ حياته في مستشفى الحايك ومنعه من بذل أي مجهود في الكلام ، فقد كان فريد الاطرش يقول لاصدقائه ومحبيه الذين كانوا يحيطون به ليل نهار : « ارجوكم لا تجعلوا الجمهور يعلم شيئا عن حالة الخطر التي أمر بها ... لا اريد لصورتي التي في خياله ان تتشوه . اطلبوا الى اخواني واصدقائي الصحفيين الا يكتبوا شيئا عن حالتي الصحية . قولوا لهم كي يكتبوا انني بخير ، وانني سأنهض من فراشي بعد ايام واعود الى الغناء والتلحين » ...

وكانت سكرتيرته دنيز جبور التي رافقته منذ عشرات السنين ، وكانت بالنسبة له الصديقة والاخت والسكرتيرة ، كانت تجيبه :

● انت فعلا بخير ، وستنهض حقا بعد ايام وتعود الينا جميعا ...

وكان يجيبها بعناء :

● لا ... انا عارف نفسي كويس ... انا بودع يا دنيز ... باقي من عمري بضع ساعات ارحل بعدها الى العالم الآخر وانا مطمئن البال ومرتاح الضمير لاني لم اؤذ احدا في حياتي ، ولم أتسبب بالاذى لاي انسان .

وعندما كانت دنيز وشقيقه منير واصدقاؤه يحاولون منعه من الكلام كان يقول لهم :

● سيبوني اتكلم ... عاوز اقول اللي في قلبي ... بعد شوية مش حاقدر اقول اي حاجة ... بعد شوية سأتوقف عن الكلام الى الابد ... نفسي اتكلم واقول ... نفسي اغني يا دنيز ... نفسي أقابل جمهوري فردا فردا ... نفسي اشكرهم على محبتهم لي طوال العمر ده ...

مرضه ليس ادعاء

ورغم كثرة عدد المغنين والفنانين الذين يشكون من امراض في حالاتهم الصحية ، الا ان الفنان الراحل فريد الاطرش ، كان اكثرهم اقترابا من المرض والخطر ... وكان قلبه مدعاة تعبه ومرضه ... قلبه الكبير الذي أحب كل الناس هو الذي حمل له المتاعب والآلام ... وفي الاسابيع الاربعة الاخيرة حيث كان يعالج في مستشفى لندن كلينيك ومستشفى برجيتون في العاصمة الانكليزية ايضا ، كان فريد يشكو من انسداد شرايين القلب ، ومن وجود كمية من المياه في جسده . وعندما عجز الطب المتطور في انكلترا عن انقاذ حياة امير العود ، اشار طبيبه الانكليزي بيرجسون على ذويه المرافقين لينقلوه الى وطنه لبنان « ليتوفى في بلده » بعدما فقد الامل في شفائه .

وبالفعل وصل فريد الاطرش يوم الاثنين الفائت وهو في حالة قريبة من الخطر ... وبعد ثماني ساعات فقط امضاها في منزله بالفياضية طلب طبيبه اللبناني الدكتور نجار ان ينقل الى مستشفى الحايك الذي يعالج فيه ليكون تحت اشرافه دائما ، ولان حالته الصحية تستدعي نقله الى المستشفى .

ظل الفنان الراحل تحت الخطر خمسين ساعة وممنوعا من استقبال احد او دخول احد غير الطبيب والممرضين الى غرفته في مستشفى الحايك ... وقبل ان يتوفى في الساعة السادسة من مساء الخميس الفائت (ثالث ايام عيد الاضحى المبارك) بساعات قليلة زال الخطر نسبيا ، وبدأت صحته تتحسن تدريجيا ... الا أن هذا التحسن لم يغير كثيرا في هيئته الخارجية ... فقد انخفض وزنه الى معدل النصف، وتغير لون وجهه وجسده واكتسب لونا أزرق غريبا وضمر جسمه كثيرا لدرجة كان يصعب التعرف عليه بسهولة لمن ينظر اليه لاول وهلة .

حكايته مع المرض

والازمة المرضية التي أودت بحياة الفنان الكبير الراحل ليست الاولى التي تصيبه . فقد تعرض من قبل لسلسلة أزمات مماثلة كان يكتب له بعدها الشفاء والحياة ... وكان فريد يشعر بدنو أجله منذ سنتين ، وكان يشعر بأن « الايام » الباقية من حياته باتت معدودة . ولذلك كتب وصية عمره التي طلب فيها ان ينقل جثمانه الى القاهرة ليوارى التراب بجانب قبر شقيقته الفنانة الراحلة اسمهان. وفي الوصية المذكورة حدد ان توزع امواله الباقية وممتلكاته على المخلصين الذين رافقوه في مشوار العمر الطويل امثال : اشقاؤه ، وسكرتيرته دنيز جبور ، والطباخ الخاص ، وخادمتاه سنية وخضرا ...

صباح السبت الفائت نقلت جثة الفنان الراحل في طائرة اقلته الى ارض النيل التي ترعرع فيها ومنحه شعبها التشجيع والحب بعد ان كانت سكرتيرته دنيز جبور قد سبقته الى مصر لتهيئة منزله هناك واجراء اللازم ولتكون في استقباله .

... ورحلته مع الموسيقى

ان رحلة فريد الاطرش مع الفن بدأها قبل خمسين عاما عندما انتقل من سوريا عام ١٩٢٣ حين كانت القاهرة في ذلك العام تغلي بالثورة بسبب الاضطرابات السياسية ومحاولات الانكليز المتواصلة في فرض احتلالهم على المصريين وسعي المصريين الدائم ضد هذا الغاصب المحتل ...

وفي سوريا كانت ثورة الدروز ضد الفرنسيين والاحتلال الفرنسي ... وفقدت فرنسا صوابها من هجمات الثوار الاحرار فاطلقت مدافعها تهدم كل شيء .. واشتدت هجماتها على جبل الدروز ... وفي مدينة السويداء كانت طلقات المدافع لا تسكت لحظة .

وفي ظلام الليل قامت أسرة صغيرة مكونة من ام وابنتها وولديها يحملون بضع حقائب صغيرة فيها بعض الملابس وبعض القوت الذي يكفي هؤلاء الاربعة في رحلتهم الطويلة من جبل الدروز الى ... عالم الغيب .

وفي الطريق تعرفت الاسرة على رجل من ابناء الجبل كان يعمل يوما ما في خدمتهم فنصحهم ان يسافروا الى لبنان . وسافرت الام واولادها الى لبنان حيث قضوا فيه عامين . وخلال هذه الفترة تعرفت الام بأسرة مصرية كانت تمضي فترة الصيف في لبنان ومهدت هذه الاسرة للام واولادها السفر الى القاهرة حيث وصلوها في سنة ١٩٢٤ . والواقع ان الام لاقت الامرين في سبيل تربية اولادها ...

والحقت فريد الاطرش بمدرسة الخرنفش وبدأت تكافح من أجل اولادها فغنت في الاذاعات الاهلية ، وكذلك غنت في الحفلات العامة . وظهر معها فريد الاطرش في بعض هذه الحفلات ، وكان طفلا صغيرا ، وكان يغني وهو يرتدي

الزي العربي « العباءة والعقال » . وعجب مدير احدى هذه المحطات الاهلية بصوت الصبي الصغير فتعاقد معه على الغناء في اذاعته . وشغل فريد بالموسيقى والغناء الهاه عن الدراسة حتى تقرر فصله من المدرسة فأدخلته أمه بعد ذلك مدرسة الروم الكاثوليك التي نال منها الشهادة الابتدائية .

بديعة ... تخطفه

ولمع اسم فريد الاطرش في الاذاعات الاهلية ولكن أجره من هذه الاذاعات لم يكن يكفيه ، وقد اصبح مسؤولا عن الاسرة ، فالتحق عاملا في محلات بلاتشي براتب اربعة جنيهات شهريا . وكانت مهمته توزيع الاعلانات عن المحل . وتوصيل طلبات الزبائن الى منازلهم . وتعرفت الاسرة بالمرحوم الملحن داود حسني الذي اعجب بصوت فريد ونصحه بأن يتعلم أصول الموسيقى فالتحق بنادي الموسيقى الشرقية ـ الذي اصبح فيما بعد معهد الموسيقى العربية ـ وفي هذا النادي تعلم العزف على العود على يدي رياض السنباطي الذي كان وقتئذ مدرسا في النادي .

وبعد ان تمكن فريد من العزف والغناء بدأ يخطو خطواته الاولى في الفن فالتحق مطربا في فرقة المرحومة ماري منصور في شارع عماد الدين ، وكان يتقاضى من هذه الفرقة راتبا شهريا قدره ستة جنيهات . ولمع اسم فريد كمطرب وترامت شهرته الى اسماع بديعة مصابني التي عرضت عليه أن يعمل في فرقتها مقابل ثمانية جنيهات في الشهر ، ووافق فريد على الفور ، لان العمل مع بديعة مصابني يومئذ كان امنية اي مطرب او مطربة .

ونرك فرقة ماري منصور الى فرقة بديعة مصابني وبدأ يلحن استعراضات واسكتشات الفرقة ويظهر فيها مع

محمد عبد المطلب ومحمود الشريف ، كما عمل « عوادا » في تخت المطرب ابراهيم حموده .

وجاء العام ١٩٣٤ والغيت محطات الاذاعة الاهلية وانشئت الاذاعة الرسمية للحكومة وعين الاستاذ مدحت عاصم مديرا فنيا لها ، واهتم الاخير بالبحث عن المواهب الجديدة ليتبناها ويتيح لها فرصة الظهور في الاذاعة .

حبه من غير امل

وذات يوم ذهب الى نادي الموسيقى الشرقية لهذا الغرض ، واثناء وجوده سمع صوت عزف على العود واعجب بطريقة العازف الذي لم يكن غير فريد الاطرش ، وطلب مدحت من فريد ان يزوره في محطة الاذاعة الحكومية ... وكانت هذه اكبر فرصة ونقطة تحول في حياة فريد ، فقد شجعه مدحت على الغناء والتلحين ، وغنى فريد اول اغنية له من الحانه وهي « يا حب من غير امل » ثم اعقبها بأغنية « افوت عليك بعد نص الليل » ثم اغنية « يا ريتني طير لطير حواليك » .

وطارت شهرة فريد الاطرش كمطرب وازدادت هذه الشهرة كملحن حيث غنت له شقيقته المرحومة اسمهان بعض الحانه . واستمرت شهرته في ازدياد حتى اصبح المطرب الثاني بعد محمد عبد الوهاب في ذلك الوقت .

ولما لمع اسم فريد اختاره المخرج المرحوم احمد بدرخان هو وشقيقته اسمهان ليقوما ببطولة فيلم «انتصار الشباب» الذي تدور قصته حول كفاح فنان فقير هو وشقيقته في مجال الفن ويحلم هذا الفنان بتقديم عمل فني ، ويتحقق حلمه عن طريق أحد اصحاب المسارح ويصبح فنانا مشهورا .

وبعد عرض فيلم « انتصار الشباب » حوالي العام ١٩٤٠ ازداد فريد شهرة واصبح نجما لامعا ومطربا مشهوراً . وتلتها مرحلة اخرى من حياته كلها مجد وشهرة وتخللتها قصص ملأى بالمآسي والاحزان .. وبقصص الحب .

حكايته مع الدموع

ولفريد الاطرش ، كما هو معروف للجميع ، اسلوب خاص ومميز في الغناء الذي يغلب عليه طابع الحزن والبكاء . ولهذا الاسلوب الباكي الحزين مبرره لدى فريد وهو الذي كان قد اعترف به مرة لصديقه الكاتب المصري فوميل لبيب الذي اصدر عنه كتابا خاصا اسماه « دموع فريد الاطرش » . وفي الكتاب يستعرض المؤلف الدموع ، وكيف انسكبت في اذن فريد وهو طفل صغير ، من امه وهي تغني له ، ومنها وهي تبكي على اخوته الذين ماتوا .. ومن اهله وهم يبكون على ابطالهم الذين استشهدوا ، ومن الحرمان من الراحة والهدوء ، ومن الخوف الذي أحاط طفولته ، منذ عبر في زورق من تركيا الى الشام ... وفي هذا الزورق ولدت اخته اسمهان ... الى ان رفع الغطاء الرقيق عن راسه وهو على حدود مصر ، بعد ان وافق سعد زغلول على ان يدخل فريد الاطرش واخوه فؤاد واخته اسمهان الى مصر ... فسعد زغلول كان يعرف من هو ابوه ومن هم اهله ... فكلهم من المحاربين الامراء سكان الجبال .

ولم تمسح هذه الدموع انتصاراته الفنية .. ولم تمسحها غرامياته الملتهبة ... فقد كان مفروضا ان تؤدي نار الحب الى تبخير الدموع ... ولكن نيران الحب أذابت دمه ولحمه واطالت لياليه ...

ولم يحب انسان اخته كما احب فريد الاطرش اخته آمال – وهو الاسم الحقيقي لاسمهان – .. كانت دائما تسكن في قلبه وتفكيره ... وكانت دائما على لسانه عندما يريد ان يضرب بها المثل بالاخلاق والذكاء والصوت الجميل ... وكثيرة هي المرات التي كان فريد يصرح بها لنا – نحن الصحفيين – عن اسمهان ... وكان رأيه الدائم بها :

● « لقد كانت أغلى من الحياة بالنسبة لي ... كانت لصيقة بي اكثر من روحي ... كانت تشعر بي عن بعد وكنت احس بها حتى ولو كانت في بيروت وكنت انا في القاهرة . كانت احلامنا واحدة ... وآمالنا مشتركة ... وكانت تفهمني وتقدر فني وتحترم تفكيري لدرجة لا يمكن تصورها ... ثم زاد من التصاقنا اننا كنا نهوى الشيء نفسه – الموسيقى والغناء – ولذلك بدأنا الطريق معا ودخلنا المحراب المقدس وايدينا في ايدي بعضنا ... ثم فجأة وبلا مقدمات افلتت من اول الطريق وضاعت الى الابد ... ومن هنا كانت عظمة الحزن الذي غلف حياتي كلها ... وربما كان هذا هو السبب في طابع الالم الذي يعتصر معظم الحاني ويغلف موسيقاي ... وربما كانت هناك اسباب اخرى من الصدمات المتتالية التي واجهتني خلال الطريق الطويل ... ولكن آمال – اسمهان – كانت اقواها واحزنها » .

ولهذا لم يفاجأ محبو فريد حين قرأوا في وصيته كي يدفن الى جانب اخته الراحلة في ارض الكنانة ، وكأنه يريد ان يؤكد في الفرصة الاخيرة حبه لاخته ، ووفاءه لشعب وارض مصر .

كل الفنانين : خسره الفن

الفاجعة الفنية الاليمة عكست مرارتها وحزنها على قلوب كل الفنانين في الوطن العربي ..

فقد بكى يوسف وهبي وهو يقول لي :

« لقد فقدت ابني وصديقي فريد الاطرش ... وفقدنا جميعا فنانا عظيما وانسانا كريما ... وانني انعي الجميع لوفاته واعزي الفن بخسارته » .

وقالت لي سامية جمال :

« مش عارفة اعمل ايه ... عندما سمعت النبأ على شاشة التلفزيون انتابني خوف كبير ... فريد خسارة لا تعوض للفن وللوطن العربي » .

وقالت لي صباح :

« مهما نقل في فريد الاطرش فلا نفيه بعض حقه ... يكفي انه في القمة منذ اربعين عاما .. لقد بدأ كبيرا وغادرنا كبيرا ... وقد اعطاني اجمل الحاني على الاطلاق » .

وقال المخرج بركات :

« لقد خسرت صديق العمر. وحزني عليه لا يوصف».

والشيء نفسه قالته سميرة توفيق ومحمد عوض وعدد كبير من الفنانين .

« مجلة الحسناء »

لقطات اخيرة

● في القاهرة خرجت مئات الآلاف من المواطنين تعبر عن حزنها العميق على وفاة فنانهم الكبير بالاحتشاد حول مسجد مكرم اثناء تشييع الجثمان ، واضطر رجال الشرطة للتدخل وتهريب النعش .

● سكرتيرة فريد الاطرش التي ترافقه منذ عدة سنوات دنيز جبور قالت لشقيقه فؤاد : خذوا كل محتويات المنزل واتركوا لي صورة الراحل الزيتية الملونة ومعطفه الاسود الذي كان مفضلا لديه .

● الذين كانوا حول فريد الاطرش خلال حياته في السنوات الاخيرة قدروا ثروته التي خلفها بمليوني ليرة موزعة بين البنك العربي في لبنان واحد البنوك في باريس . وهم ايضا قالوا انهم سمعوا فريد في المدة الاخيرة يعرب عن ندمه لعدم زواجه حتى الآن لانه كان يتمنى ان يصبح ابا لابن يحمل اسمه .

● قبل وفاته ببضعة شهور تلقى الراحل سيارة كاديلاك من احد الامراء أهداها بدوره « لخطيبته » سلوى -لاق . والاخيرة ظهرت ليلة وفاته في منزله بالفياضة ثم

شوهدت وهي تجمع في حقيبتها اغراضها الخاصة ... وترحل ! وقيل ان نظرات بعض الموجودين لها غير المريحة دفعتها لمغادرة المكان . وقد كانت سلوى حلاق الى جانب الراحل عندما لفظ أنفاسه الاخيرة ، وكان ايضا السيد رياض جنبلاط زوج السيدة كاميليا كريمة اسمهان، والذي يشبه الفنان الراحل الى حد بعد .

● قبل يومين من وفاته ذكر فريد انه شاهد في الحلم والدته وخالته المتوفيتين ودعتاه اليهما . وعندما صحا فريد من نومه ابدى تشاؤمه من الحلم . وهو عندما عاد من لندن قبل الوفاة بخمسة ايام، أخبر ان حقيبته هي الوحيدة التي فقدت في الطائرة ... فزاد تشاؤمه .

كان ذلك خريف ١٩٥٨ . سمع فريد الاطرش ان المخرج يوسف شاهين يعبر أزمة بعد الفشل الذريع الذي لقيه « باب الحديد » فيلمه الاخير . لم يكن في القاهرة من منتج يقبل المجازفة باعطاء فيلم لشاهين وكان السينمائي يأكل رزا أبيض للغذاء ورزا أبيض للعشاء ، ولا غيره. وعندما كان يلتقي صدفه بزملائه سينمائيي القاهرة ، كان يسمعهم شاهين يقولون : « ايه الفيلم ده يا اخي ؟.. ما حدنش فاهمه ... » .

دق التلفون في شقة يوسف شاهين .

ـ الو ، ازيك يا جو .. ايه الفيلم الهايل ده !.. يا استاذ عايزينك تلاقيلنا دور .

في ١٩٥٦ و ١٩٥٧ بعد حرب السويس ، كان شاهين اخرج فيلمين في بطولة وانتاج لفريد الاطرش : «انت حبيبي» و « ودعت حبك » والاثنان كان لهما نجاح كبير . لكن الموسيقار النجم كان نال نجاحا اكبر عندما تعامل مع هنري بركات واحمد بدرخان .

ـ ... عايزينك تلاقيلنا دور .

كان يقولها فريد الاطرش النجم ـ المنتج .

ولم يستغرب شاهين . قال له : « ابن أصل يا فريد ... بكره تتعدل » .

ـ تتعدل ايه يا راجل . البس وانزل ، أنا منتظرك ، ونبدي التصوير ساعة ما نكون جاهزين .

ليلتها أعطى فريد الاطرش يوسف شاهين سيناريو في الفرنسية : « نابولي ، القبلات النارية » . سيناريو فيلم فرنسي قام المغني تينو روسي ببطولته في ١٩٣٧ وكان الاقبال هائلا عليه .

اقراه وقللي رأيك .

بعد ثلاثة أيام . اتصل فريد الاطرش بشاهين : « القصة ما عجبتكش ؟ ولا يهمك . تلاقي غيرها . على كل حال ، حتى اذا ما كنش لك نفس تشتغل ، تعال انا لوحدي وبدندن . تعال اسمع اللحن الجديد .

في خريف ١٩٥٨ ، التقيت للمرة الاولى بالاستاذ فريد الاطرش . صحبني المخرج معه عند صديقه . فتح الخادم وهو يهمس : « بشويش الاستاذ بيشتغل » . دخلنا على أطراف اصابعنا وكان الاستاذ على الارض وعوده في حضنه يعزف ويرافق الموسيقى بدندنة خفيفة جدا . وقفنا عند باب الصالون حتى توقف عن الارتجال . سبع دقائق، عشر، ثم رفع رأسه وقال لنا : « يا سلام يا فريد ، يا فريد ! مش هايل ؟؟ » . وكان هائلا .

*

فريد الاطرش في الحياة كان يشبه الشخصيات التي لل يمثلها عبر عشرين فيلما . او العكس صحيح . لم يخرج

شاهين فيلما ثالثا لفريد الاطرش ، ولكن اعتقد الموسيقار أرسل الى المخرج مغلفا فيه ما آخرجه من الازمة .

في كل افلامه كان الثري الكريم .

وكمان في الحياة ، في السينما ، كان يهوى صحبة النساء والفنانات اللواتي أحببنه وأحبهن ، وهن يتذكرنه دائما في دفء عميق : « فريد انسان جنتلمان » .

كان يهوى المقامرة واذا خسر ابتسم وقال : « غيرها بغيرها » .. لم يكن يذهب الى الكازينوات في لبنان او اوروبا بغية الكسب ، لم يكن محتاجا ليزيد مبلغا على ثروة كبيرة من عمله ومن خلقه . كان يحب دقة القلب التي تسرع لحظة وقوف كلة الروليت . وغير مرة ، قال له الاطباء : « اللعب اخطر شيء على قلب محظرة عليه الانفعالات القوية » . وكان يعد بأن ينام في التاسعة . وعندما كان الليل يتقدم يتصل بأصدقائه ، ويقضي ليلة اخرى يتسامر ويضحك ويتحدث عن الموسيقى وعن السينما .

*

ظل فريد الاطرش سنين يحمل على الشاشة اسم وحيد . ومثل شخصيات وحيدة ، تعيش الحب ويحرقها وتعيش وحدتها وتغني أساها ، واحيانا تدور العجلة وتنتهي على سعادة ، واحيانا ينتصر الاسى . لكن شخصيات فريد الأطرش في أفلامه لم تكن تنتهي ضحية سلبية للقدر او للمجتمع (كما مثلا شخصيات صنعت شعبية فاتن حمامة أو ماجده : الشخص الضحية ، المسكين ، المغلوب على أمره) . كان دائما قابضا على اللجام . وحتى في « ودعت حبك » (واعتقد فيلمه الوحيد الذي يموت فيه البطل في

النهاية) كان يعلم أن النهاية حانت وان عليه فراق الحياة ، وفي استعراض موسيقي ناعم، يغني وداعه لاحبائه واصدقائه .

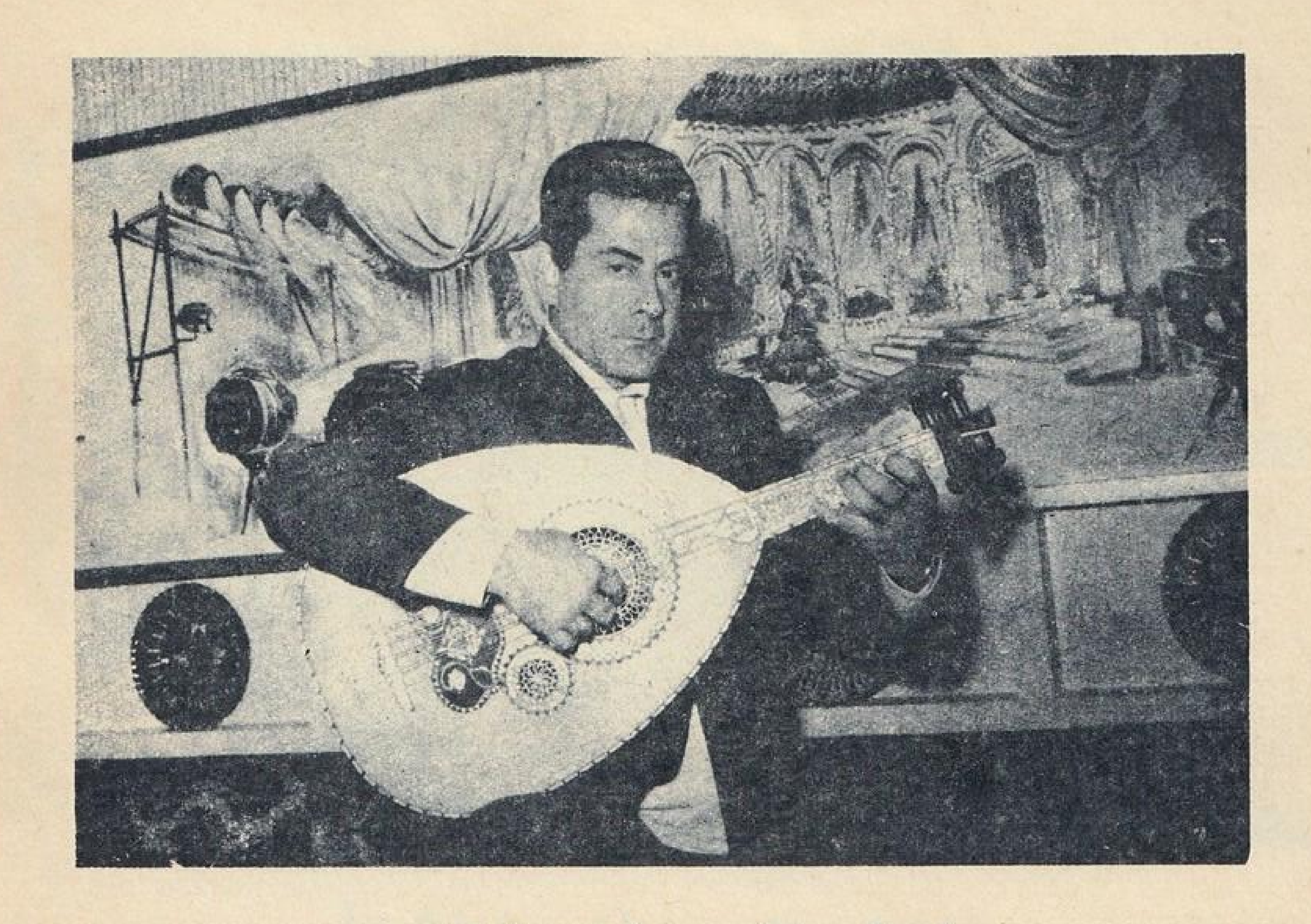
ثلاثة أجيال من النساء أحببن النجم فريد الاطرش ، بطل « انتصار الشباب » و « بلبل افندي » و « أخر كذبة » و « ودعت حبك » . جماهير لا نهاية لها في الشرق وفي الغرب حضرت أفلامه، مرة ومثنى وثلاث ورباع وخماس، للاستماع الى أغانيه ، وكذلك لمشاهدته يمثل الغرام والعشق الناعم ، الهادىء ، مع فاتن او ماجدة او شادية او سامية جمال او زبيدة ثروت ، أو مريم فخر الدين .

واليوم يعاد واحد من الافلام التي مثلها فريد الاطرش في الثلاثين السنة الاخيرة ، ويلقي النجاح . فريد الاطرش (مع عبد الحليم حافظ وام كلثوم) ، النجم العربي الوحيد الذي لم يسقط له جماهيريا فيلم واحد .

« جريدة النهار »



اسمهان شقيقة الفنان الكبير فريد الاطرش ..
شقيقته بالروح والدم والفن



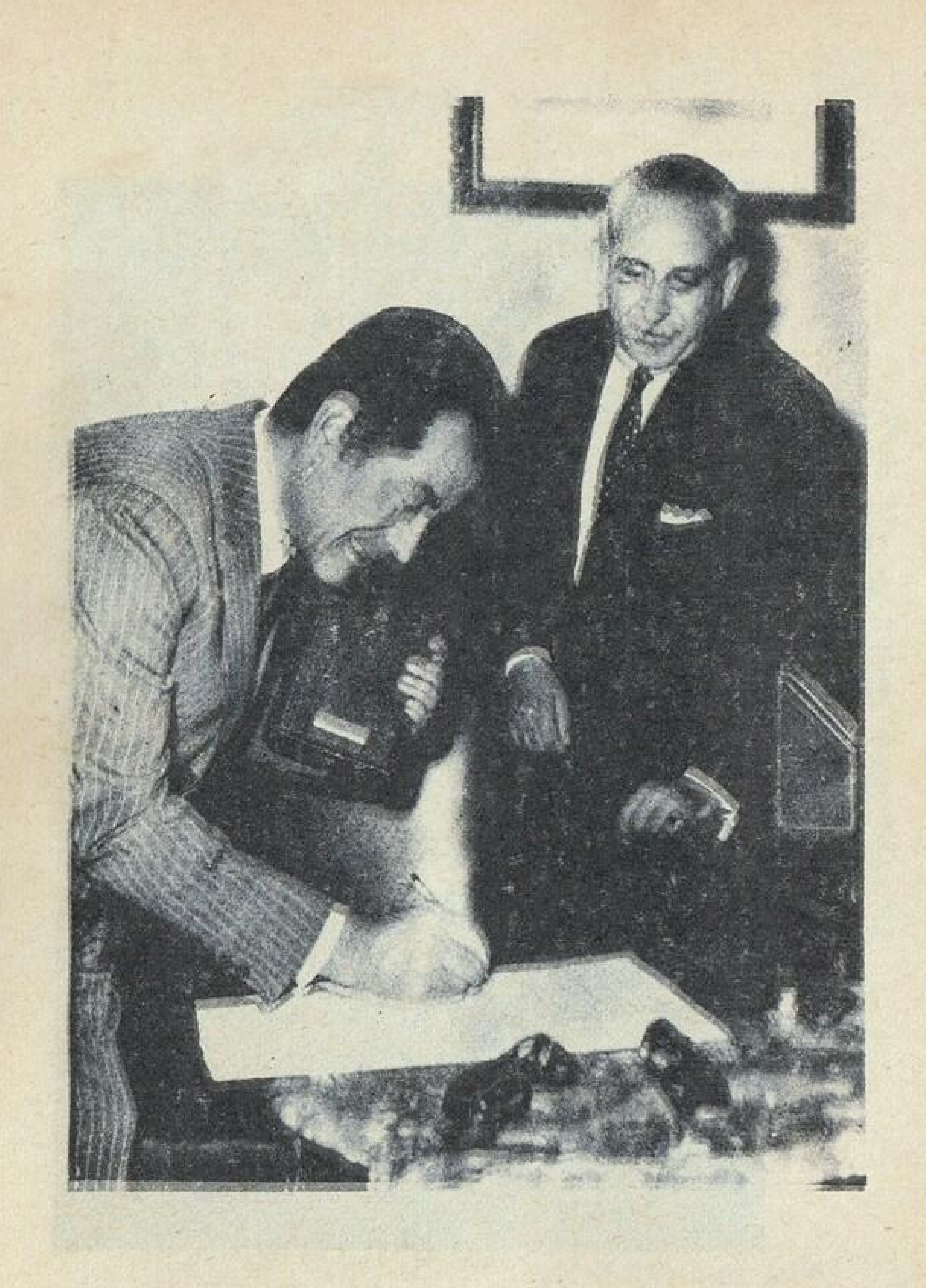
امير العود يحمل عوده في بيته في القاهرة



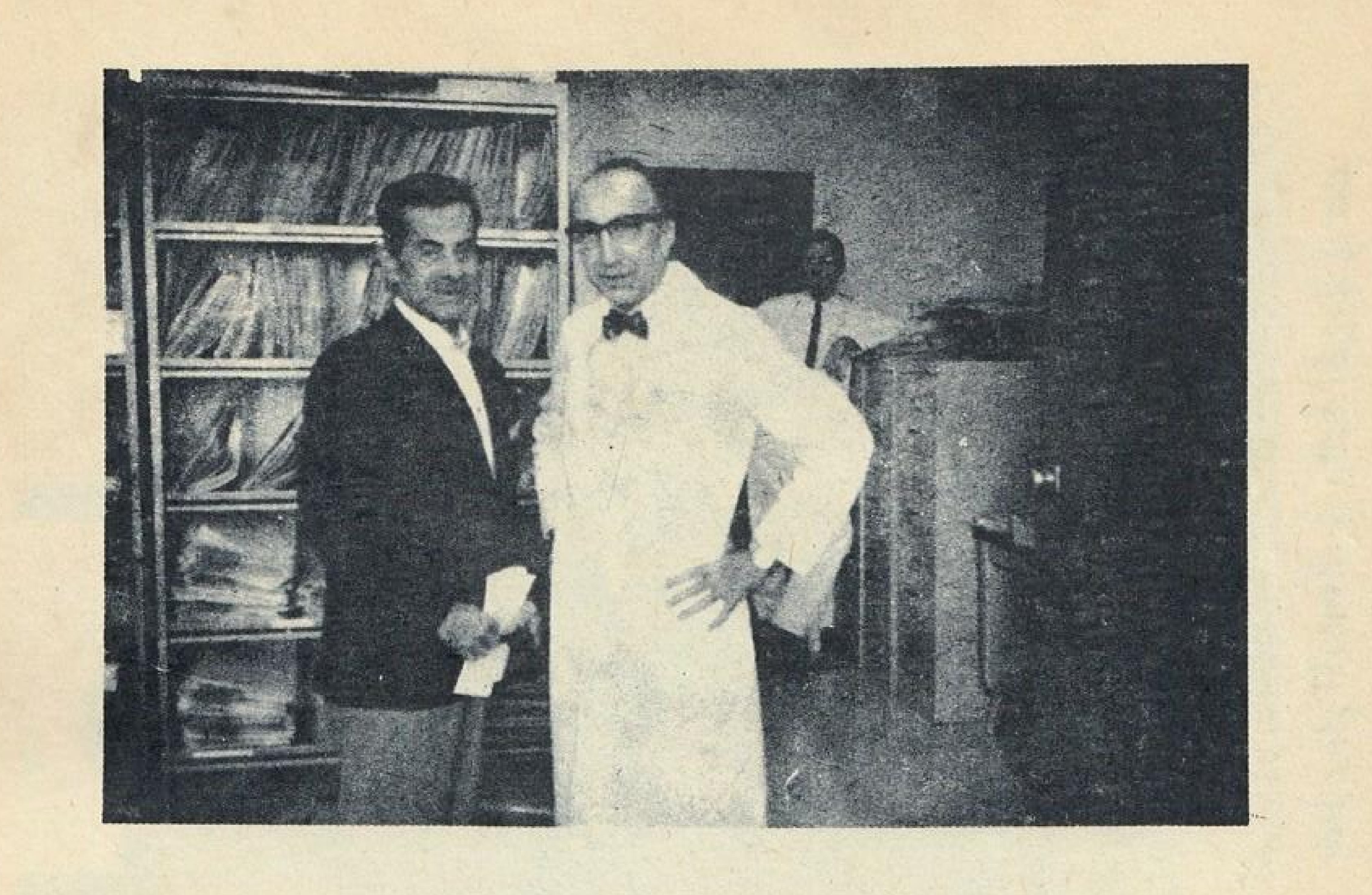
فريد الاطرش مع الفنانة فاتن حمامه



أمير الليل في سهرة تجمعه مع شلة من الفنانين



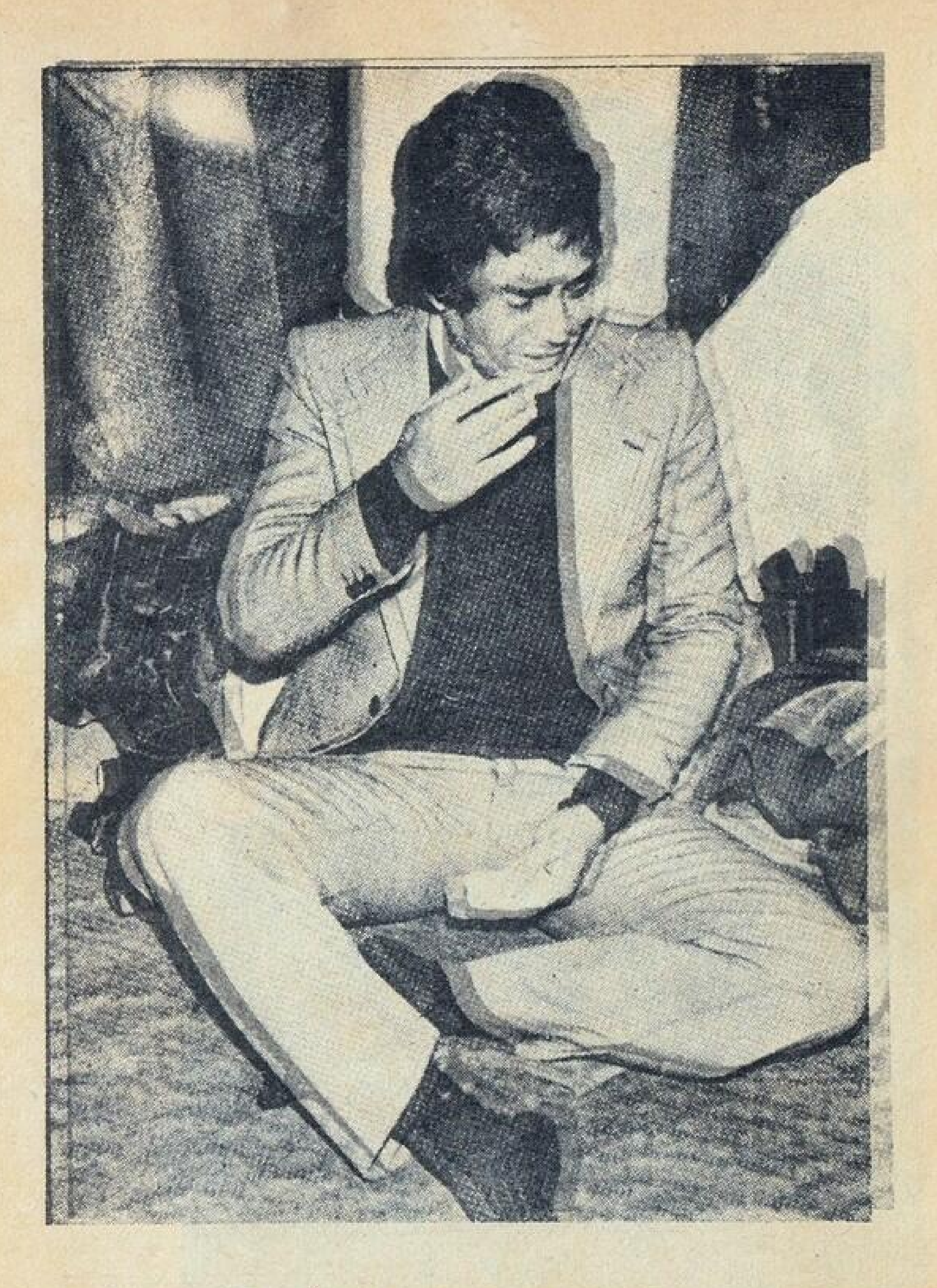
يتسلم وسام الاستحقاق في رئاسة الجمهورية في مصر
ويوقع في سجل التشريفات



مع طبيب القلب المشهور الدكتور دبغي



آخر صور الفنان فريد الاطرش أخذت له اثناء
تمثيل فيلم نغم في حياتي



حزن الفن على الموسيقار فريد الاطرش عبّر عنه الفنان
عزم فؤاد الذي سقط في ارض الجامع ينتحب
على فريد الفنان والصديق